The International Journal of Islamic Studies and Culture (IJISC)
Volume 3, Bil. 1, May (2024)
ISSN: 2948-3778 e-ISSN: 2948-3913 https://ijisc.unishams.edu.my

المناجاة والتصوف

د عادل محمد عبد القادر

Universiti Islam Antarabangsa Sultan Abdul Halim Mu'adzam Shah (UniSHAMS)

الحمد لله وأصلي وأسلم على خاتم رسله وصفوة خلقه، وعلى آله وصحبه. وبعد، فلا يخفى أن فن المناجاة من الفنون الأدبية التي ذاع صيتها، وانتشر صداها في كل العصور الأدبية سواء في الشعر أو في النثر، لتعلقه بالذات الإلهية واللجوء إليها، ومحادثتها عما يدور في الفكر والوجدان، وقد استقى شعراء الصوفية مناجاتهم من القرآن الكريم ، ولا غرو فالمناجاة الصوفية هي أشد الأغراض حاجة إلى هدي القرآن الكريم، لأن الشاعر الصوفي في مناجاته يقف بين يدي الله الخالق سبحانه، وبذلك يحتاج إلى التوسل بآيات الذكر الحكيم، لأن من تخاطبه هو رب العزة والجلال ، وهذا يدل على تعلق المناجي بربه وإيمانه الصادق بأن توجهه لربه في دعائه وسيلة لاستيعاب مناجاته واستجابتها. ولقد كان للصوفية لغة خاصة استحدثوا فيها الرمز والإشارات والتلميح، فكونوا خصوصية للطريقة الصوفية، يصعب على غيرهم إشراك من هم من غير الصوفية، فالصوفية معاني مغلفة بأقنعة الرموز، وتلك الأقنعة لا تخترقها سوى الثقافة الصوفية التي منبعها الذوق والإلهام .

أسئلة البحث:

١- إلى أي مدى اعتمد الصوفية المناجاة باعتبارها حواراً بين المحب وحبيبه ؟

٢-هل استطاع الصوفية من خلال تجربتهم في الفناء في الحب الإلهي أن يخلقوا معجما خاصا بمناجاتهم وتجلياتهم القلبية متلائماً مع خصوصية تجربتهم الشعورية؟

٣-ما أنواع المناجاة؟

٤-ما صور مناجاة الأنبياء والرسل في القرآن الكريم؟

أهداف البحث:

١- تعزيز مكانة المناجاة وبيان عظيم قدرها ومكانتها، عندما يقدمها المناجي بين يدي الله تعالى لتتناسب مع جلال المعبود وعظمته جل جلاله.

٢-بيان أن المناجاة تعبر عن أعمق مشاعر الإنسانية في مناجاتها للذات العلية، طلبا لغوثه ومحبة فيه ، وتوقا إلى نوال رضاه.

٣-بيان أن الحب الإلهي بمثابة الغذاء الروحي في الأنس والاتصال بالذات الإلهية، فقد مارسه النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والتابعون ومن بعدهم من مشايخ الصوفية الذين جعلوا من حبهم للذات الإلهية موضوعا يدور حوله ويناجي من خلاله.

ومثل الوجد كانت المناجاة عند الصوفية، وقد نشأت هذه المناجاة في أثناء الخلوات التي كان الصوفية يعقدونها، والتي كانت ذات تأثير كبير في نفوسهم، إذ كانوا يحرصون على أن تؤديَ الخلوةُ مهمتَها الكاملة وهي الارتفاع بالنفس إلى الملكوت الأعلى. لذا فقد رأوا أن المناجاة التي يردّدونها في خلواتهم، لا بد، ولكي يقوى تأثيرها، من أن تكون ذات قيمة أدبية، فظهر في الشعر الصوفيّ لونٌ جديد أطلقوا عليه تسمية: المناجاة .

تمهيد

المناجاة لون من ألوان الحوار بين العبد وربه، لها أثر عميق في توطيد الصلة بين الله عز وجل ومخلوقاته مع ما فيها من قنوت واخلاص لله وحده، يحتاج الإنسان إلى مناجاة الله تعالى لإذكاء الشعور برحمته وعظمته وعنايته، وإخلاص التوجه إليه بالدعاء والاستغفار، إنها الابتهال إلى الحق سبحانه والتضرع إليه، و هي لا ترد على ألسنة الأنبياء والمرسلين فحسب بل على ألسنة شخصيات مؤمنة تناجي ربها، وتتوسل إليه ليستجيب الدعاء. وقد اعتمد الصوفية المناجاة في أشعارهم ونثرهم وخطبهم ومواعظهم، لتعلقه بالحب الإلهي أو المحمدي، ومناجاة رب العالمين، ولذا كان للصوفية في أحوالهم لطائف تأسر اللب، " فقد تولاهم الله تعالى برعايته فأدبهم وهذب ظاهرهم وأصلح باطنهم، حتى ظهر كل واحد منهم صوفيا أديبا، تكاملت أخلاقه بتكامل أدبه، لأن الآداب منبهة للسجايا الصالحة والمنح الإلهية، ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية لمناجاته وكملها بالسجايا الطاهرة توصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج ما في النفوس من الشوائب، وتهيئتها إلى معرفة الحضرة القدسية فصاروا مؤدبين مهذبين كاملين لله وبالله وفي الله " (١)، وقد استقى الصوفية مناجاتهم من الآيات القرآنية، والمناجاة الصوفية هي أشد الأغراض الشعرية حاجة إلى تلك المرجعيات، وذلك لأن الشاعر الصوفي في مناجاته يقف بين يدي خالقه، وبذلك يحتاج إلى التوسل

١ – د محمد عبدالمنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، القاهرة، بدون معرفة تاريخ الطبعة، ص١٧.

بالقرآن الكريم، والتي تمثل بالنسبة له قوة وقدسية خاصة وأسلوب متميز، لأن من تخاطبه هو رب العزة جل في علاه، ولهذا فأنت تحتاج أن تقدم أبهى ما عندك . ([٢]) ويهمنا أن نتعرف على معنى المناجاة لغة واصطلاحاً.

تعريف المناجاة لغة: مأخوذة من ناجاه ، النجوى أيضاً: السر، قال الله تعالى: (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم). وفعله نجاه ينجوه نجواً ونجوى: سارة.([٣]) .والنجوي. من التناجي، قال الله عزّ وجلّ {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}([٤]) . والنجوى من التناجى, وهو الحديث المكتوم, قال الله جل ثناؤه:{وأسروا النجوى الذين ظلموا} [سورة الأنبياء: ٢١/ ٣]. وقال الأخطل:وليلة نجوى يعترى أهلها الصبا . سلبت بهما حرا جميلا مسالبه، وقال أبو زيد: «النجوى: الجماعة يتناجون, قال الله تعالى: {وإذا هم نجوى} [سورة الإسراء: ١٧/ ٤٧]. والنجوى أيضا: المناجاة, قال الله تعالى: {فقدموا بين يدى نجواكم صدقة} [سورة المجادلة: ٥٨/ ١٢] قال: وأما قوله تعالى: {ما يكون من نجوى ثلاثة} [سورة المجادلة: ٥٨/ ٧] فيمكن أن يعنى الجماعة, ويمكن المناجاة, يحتمل الوجهين جميعا»([٥]). ومنه النجوى: أي الجماعة يتناجون, قال عز وجل: «وإذا هم نجوى» والنجوى أيضًا: المناجاة. قال: «وأسروا النجوى» وقال «فقدموا بين يدي نجواكم صدقة» وأما قوله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثةٍ» فيمكن أن يعني الجماعة, ويمكن المناجاة يحتمل المعنيين. ([٦]) وإذا كان الحديث بين القوم

---

[٢]– الاقتباس من القرآن الكريم في المناجاة الصوفية، هالة معين صبري، د إسماعيل حمادي، جامعة واسط، كلية التربية، ص ٢٦٠.

[٣] – إيضاح شواهد الإيضاح، أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي (المتوفى: ق ٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، ١ | ٥٤٣)

[٤] – المقصور والممدود، المؤلف: ابن ولاد أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمي المصري (المتوفى: ٣٣٢هـ)، تحقيق: بولس برونله

الناشر: مطبعة ليدن، ١٩٠٠ م، ص ١٢٤.

[٥] – المقصور والممدود، المؤلف: أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم (٢٨٠ هـ - ٣٥٦ هـ).، المحقق: د. أحمد عبد المجيد هريدي (أبو نهلة).الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م. ص١٣٣.

[٦] – النوادر في اللغة، المؤلف: أبو زيد الأنصاري، تحقيق ودراسة: الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد، الناشر: دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص١٦٠)

The International Journal of Islamic Studies and Culture (IJISC)
Volume 3, Bil. 1, May (2024)
ISSN: 2948-3778 e-ISSN: 2948-3913 https://ijisc.unishams.edu.my

يسمعونه كلهم ويتجاذبونه، سمي مناجاة. (٧) قال ابن إسحاق: وانتجاه إذا خصه بمناجاته. والنجو والنجي: السرّ . والنجو :السر بين اثنين يقال نجوته نجوا، أي

سارته وكذلك ناجيته(٨). وناجيته. أي سارته. وانتجيت فلانا: استخلصته لسري(٩) .وفي حديث الدعاء " اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيك " هو المناجي المخاطب للإنسان والمحدث له وقد تناجيا مناجاة، والمناجاة في لسان العرب هي »التسار« َ أو تبادل الأسرار خفية " (١٠).ومن هذه المعاني اللغوية للمناجاة نفهم أنها تدور حول الخلوة والتسارر والانعزال لإقامة حوار خافت هامس بين المناجي وبين الذات العلية.

واصطلاحاً: هي التي تكون بين اثنين أو أكثر في تخافت وتهامس بعيدا عن أسماع الناس .(١١) وهي الابتهال إلى الحق سبحانه والتضرع إليه، و هي لا ترد على ألسنة الأنبياء والمرسلين فحسب بل على ألسنة شخصيات مؤمنة تناجي ربها، وتتوسل إليه ليستجيب الدعاء (١٢). فالمناجاة إذن نوع من الكتابة أو من القول يتحدث فيه المتكلم كثيرا، لكنه حديث أقرب إلى الصمت أو السرية (١٣). وقد يختلط معنى المناجاة بالدعاء.

---

٧ – شرح العقيدة الواسطية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل
الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١ هـ، ج١ | ٣٣٥.

٨ –(ينظر: لسان العرب المحيط، ابن منظور، إعداد وتصنيف ي لسان العرب المحيط، ابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف، نديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت: ٥٩٣-٥٩٢/٣ مادة (نجو

٩– ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان داوودي، ، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط،١ ١٤٢٦هـ: ٧٩٢مادة(نجو).

١٠ – لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د ت ، ج٦، ص ٤٣٦١، وينظر المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ج٢، ص ٩٠٥ .

١١– ينظر: التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي – القاهرة ، ج/١٤ص .٨٢٣)

١٢– ينظر: أدب القصة في القرآن الكريم دراسة تحليلية كاشفة عن عالم الإعجاز ، د. عبد الجواد محمد المحص ،الدار المصرية، الإسكندرية، سلسلة الدراسات القرآنية)١(، ٢٠٠٠م ،ص.٢٩١)

١٣ – رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي،بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٩٩(ص ٩٤٣) .

الدعاء لغة: ما يدعى به الله سبحانه من القول.رغب إليه وابتهل، ويقال: دعا الله: رجا منه الخير (١٤)، "والدعاء كالنداء إلا أن النداء قد يقال: بـ "يا" أو "أيا" ونحو ذلك، من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم" (١٥).

أما في الاصطلاح: هو التوجه إلى الله بالرغبة إليه فيما عنده من الخير، إما للثناء عليه، وإما الابتهال إليه بالسؤال لدفع ضر، أو جلب نفع، وكلها عبادة لله سبحانه.

الفرق بين المناجاة والدعاء: المناجاة : وهي عادة ما يختلط معناها بالدعاء، ولا بد من القول بأن الدعاء هو طلب الداني من العالي (أنا داني والمولى عز وجل عالي) أتذلل لله، أخضع، أعبده، وقد يصدر مني الدعاء لحاجة دنيوية.

وأما المناجاة فهي ليست طلبا من الداني للعالي، وإنما هي حديث المحب إلى محبوبه (حب الله) وفيها راحة للنفس، وهي إلى ذلك حديث المحب عندما يقدم على البوح بحبه واشتياقه ولوعته. وهي أيضا مناجاة الله سبحانه وتعالى. فحديث المناجاة إذن يختلف عن الدعاء، لأن المناجاة في الغالب حديث محب مشتاق، وهي تعبر عن الألم الروحي واللوعة والشوق، وهي حديث يريح النفس، ويشعرها بنوع من الطمأنينة والسعادة والسكينة، كما هو الحال عند الصوفية في بعض مقاماتهم وأحوالهم والمتعبدين عامة . وبالت الي فإن الدعاء أعم والمناجاة أخص، وهو الأصل وهي الفرع. ولهذا يراوح العارفون باالله بين الدعاء والمناجاة، إذ المناجاة هي أخص الدعاء وأرقه وأعذبه، يلجأ إليها الصوفي عندما « يتخذ التراع بين واردات الأحوال والنفس شكلا صراعيا مريرا »(١٦)يرتبط الدعاء .كما المناجاة . ببعض المواصفات مثل الابتهال، والتضرع، والتبتل،والخشوع، والإخبات مما يعطي الدعاء قوة و حرارة تعكسها تأوهات النفس ونفثات الر وح. لهذا كان من آداب الدعاء أن «لا يرفع الداعي صوته، لأنه في موقف ضراعة وتبتل إلى االله »(١٧).

المناجاة في اصطلاح المتصوفة:

١٤-"المعجم الوسيط" (٢٨٦).

١٥- "المفردات" للراغب (١٦٩).

١٦ -أمين يوسف عودة، تجليات الشعر الصوفي، قراءة في الأحوال و المقامات، ص١٩.

١٧-. منصور الرفاعي عبيد، دعاء العارفين، ص .١٦الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط،١ ٢٠٠١ .

عرف الجنيد المناجاة بأنها: وسيلة للقرب من الله والاتصال به سبحانه ، ومما يؤثر عن الجنيد (ت ٢٩٨ هـ) في المناجاة . أيضا . قوله « : لقد فاز قومٌ دَلهم وليهم على مختصر الطريق فأوقفهم على محجة المناجاة ولوح لهم على فهم الدعوة إلى المسارعة بالمناسبة إلى فهم الخطاب" (١٨). فعلى العبد أن يلجأ إلى ربه، ليرزقه حسن الخلق، ويصرف عنه سيئها،، كما عرفها القشيري بأنها: " «مسامرة بين الحبيبين لا يسمعهما ثالث«(١٩)ويبدو هذان التعريفان هامين وتأصيليين لأنهما اعتبرا المناجاة ضرباً من المخاطبة التي يفضي فيها المخاطب إلى االله، فيبوح فيها

بسره إليه جل شأنه بقلب صاف، مستحضرا عظمة المحبوب وسلطانه. فالجنيد يركز في هذه المقولة على المناجاة باعتبارها محجة تؤدي بالمحبين للفوز بالتقرب من المحبوب الأعظم، ومن ثم فهم خطابه الموجه إليهم . تلميحاً لا تصريحاً، والنتيجة استجابتهم لنداء الحق حباً فيه وشوقاً للقائه.

وعرف الطوسي (ت٣٧٨هـ) المناجاة بأنها: مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار للملك الجبار، فهو يجعلها نوعاً من الحديث الصوفي الروحاني، الذي تطيب فيه مناجاة المولى سبحانه وتعالى. ويمكن القول إن نوع المناجاة« شأن كثير من أنواع الأدب العربي القديم، كالخطبة والمثل ،كان في الحقيقة طقساً أدائياً يمارس عمليا في حياة العربي، سواء كانت حياته الخاصة أو حياته وسط الجماعة"(٢٠). فمعنى المناجاة، استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده منه المعونة.

– الدعاء: يتداخل ويتقاطع مع المناجاة، ومن الواجب هنا الإشارة إلى الفرق بين المناجاة و الدعاء– الذي هو أعم وأشمل – إذ يتوجب في المناجاة التخافت أو الهمس في القول فضلاً عن الإخفاء الذي هو أدخل في الإلخلاص لله تعالى و أبعد عن الرياء من الإجهار والتصويت (٢١)، لأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة، وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار، وعمدة الدعاء الانكسار ، والتبري عن حول النفس وقوتها ،

---

١٨ – أبو نصر السراج الطوسي، اللمع ، ص٤١٢ .

١٩ – عبد الكريم القشيري ، أربع رسائل في التصوف، تقديم، قاسم السمرائي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ١٩٦٩، ص٤ ٤٩

٢٠– الصوفية والسوريالية، أدونيس، لندن، دار الساقي ط٣، دون تاريخ، ص .٢٢٠.

٢١– ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون ألقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ،تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت،ج /٣ ص.٥

والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه(٢٢).وفي خفاء الدعاء إشارة إلى عظيم " التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده(٢٣).

نشأة مصطلح المناجاة:

فن المناجاة من الفنون الأدبية التي عرفتها كل العصور، فقد وجدت المناجاة بصورة ضئيلة في العصر الجاهلي ، عند بعض من تَطهَّر من رجس الجاهلية (٢٤)، كعدي بن زيد العبادي القائل(٢٥) :

ولنا مجدٌ وربٌّ مُفْضِلٌ — بيديه الخير ما شاء أمر

منه فضل ولديه نعمة — إنما يرجى لما فات الغِيَر

وشفيعٌ مُنْجِحٌ ينظرنا — بيديه اليوم تيسير العسر

ومنه قول أمية بن الصلت(٢٦):

لك الحمد والنعماء والملك ربنا — فلا شئٌ أعلى منك جدا ولا مجد

مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ — لعزته تعنو الوجوه وتسجد

عليه حجاب النور والعرش حوله — وأنهارُ نورٍ حوله تتوقد

---

٢٢ – مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد اهلل محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين الرازي)ت ٦٠٦هـ(، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، ج /٢١ص.

٢٣– بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية)ت ٧٥١هـ(، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا و عادل عبد الحميد العدوي، مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة، الطبعة األولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، ج/٣ص٥١٨.

٢٤ –أدبيات الخطاب الشعري في المناجاة الصوفية، شعر أبي مدين التلمساني نموذجاً، زعبوط جهلان مصطفى صابر، كلية الدراسات الإسلامية للبنين ، قنا، العدد التاسع عشر، ٢٠٢٢، ص ١١٦٥.

٢٥ –ديوان عدي بن زيد، تحقيق محمد جبار المعيبد ، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ١٩٦٥م، ص٦٢.

٢٦ –ديوان أمية بن الصلت، تحقيق سجيع جميل الجبيلي، دار صادر ط١، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٣٨، ٣٩.

The International Journal of Islamic Studies and Culture (IJISC)
Volume 3, Bil. 1, May (2024)
ISSN: 2948-3778 e-ISSN: 2948-3913 https://ijisc.unishams.edu.my

ولا بشرٌ يسمو إليه بطرفه –ودون حجاب النور خلق مؤيد

ملائكةٌ أقدامهم تحت أرضه –وأعناقهم فوق السماء صعد

فسبحان من لا يعرف الخلق قدره –ومن هو فوق العرش فرد موحد

ويفهم من مناجاة شعراء الجاهلية أنها كانت تدور في فلك الاعتراف بفضل الله وكثير نعمه، أما في عصر صدر الإسلام فقد طبعت المناجاة بالطابع الإسلامي المستمد من القرآن والسنة المطهرة، مما أتاح لها مجالاً أوسع، حيث استعملها الصوفية في معاتبة النفس وفي الحب الإلهي . وقد أرجع معظم الدارسين نشأة المناجاة إلى المتصوفة، فالجيوشي يعتبرها فنا صوفيا خالصا فهي" من الأبواب التي لم يطرقها غيرهم ، ولم ينهج سبيلها سواهم ، فهم فرسان

حلبتها وآباء عذريتها»(٢٧) .وذهب صاحب كتاب (الأدب في التراث الصوفي) إلى اعتبار المناجاة لوناً من ألوان الأدب الصوفي، أنشأوه في مناجاة الله عز وجل والحديث إليه)(٢٨) .

أنواع المناجاة:

للمناجاة أنواع كثيرة منها مناجاة التائبين والشاكين والخائفين والشاكرين والراغبين والراجين، وتدخل ضمن مناجاة المتعبدين. ومن أهم أنواعها:

١–مناجاة المتعبدين: إن الدعاء والتوسل والإبتهال والشكوى عبارة عن حلقة وصل وثيقة وقوية بين الانسان والإله، ولذلك شكل الدعاء آلية اتصال الإنسان بالإله بهدف دفع الضرر والابتعاد عن ساحة الغضب والسعي لطلب الرحمة والرضا والبركات كما في دعوة الإله لاستدرار المطر. وهذا ينطبق عليه قول الله تعالى: " يرجون رحمته ويخافون عذابه". فالمؤمن في علاقته بربه يتقلب بين الخوف والرجاء.. فإذا دنا الأجل غلّب الرجاء.أي أن يتوجه إلى عملية البكاء والتوسل والرجاء في الغفران ليتسنى له العودة إلى فطرته وتحصيل رضا خالقه.

٢٧ – محمد إبراهيم الجيوشي، بين التصوف و الأدب، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة ،)ت.د(، ص٦٢

٢٨– محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب القاهرة ،)ت. د (ص ١١٣ .

٢–مناجاة المحبين: وهي المناجاة المبنية أساساً على الحب، وهي بذلك أكثر استغراقا في الاتصال بالله، فالمحبون «تغلب الرياضة الروحية في خلواتهم على العبادة ، فيتخذون من الخلوة وسيلة للفناء في المحبوب، أومشاهدته، ومن هنا كانت الخلوة هي التي يسبح فيها الصوفية على أجنحة من الرياضة إلى عوالم الغيب التي لا يشهدها غيرهم من الناس ، وهم يتخذون من الذكر وسيلة هامة يسعون بها نحو هدفهم البعيد (٢٩).ومثالها المناجاة الخامسة عشر لعلي بن الحسين،تبدأ المناجاة بهذه العبارات: «إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلاً، وَ مَنْ ذَا الَّذِي أَنِسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغَى عَنْكَ حِوَلاً، إِلَهِي فَاجْعَلْنَا مِمَّنِ اصْطَفَيْتَهُ لِقُرْبِكَ وَوِلايَتِكَ وَ أَخْلَصْتَهُ لِوُدِّكَ وَ مَحَبَّتِكَ وَ شَوَّقْتَهُ إِلَى لِقَائِكَ وَ رَضَّيْتَهُ بِقَضَائِكَ وَ مَنَحْتَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَ حَبَوْتَهُ بِرِضَاكَ. تستمرّ المناجاة وتصل إلي هذه العبارات: «يَا غَايَةَ آمَالِ الْمُحِبِّينَ أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَ حُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَ حُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُوصِلُنِي إِلَى قُرْبِكَ وَ أَنْ تَجْعَلَكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا سِوَاكَ وَ أَنْ تَجْعَلَ حُبِّي إِيَّاكَ قَائِدا إِلَى رِضْوَانِكَ... إلخ»(٣٠).

أركان المناجاة:

أول هذه الأركان: أن نخلص النية لله، والإخلاص من أركان الإيمان التي أمر الله عز وجل بها في كتابه في أكثر من موضع، فقال سبحانه: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) [الأعراف:٢٩]، وقال تعالى: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) [الزمر:١١]، وفي الحديث عن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى(٣١).وعن أبي أمامة الباهلي قال، قال صلى الله عليه وسلم: «إنّ اللّه لا يقبل من العمل إلّا ما كان له خالصاً وابْتُغِيَ به وجهه»(٣٢)، فعلى المناجي ربه أن يخلص له المناجاة فلا يسأل أحداً غيره، ولا يستعين بسواه. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن

٢٩–عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ص٢٨٠

٣٠ – المناجاة الخمسة عشر لعلي بن الحسين، https://ar.wikipedia.org/wiki

٣١– مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتَبة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ١، ج١ | ١٥.

٣٢– السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، ج٦، ص٢٥، حديث رقم: ٣١٤٠، وقال الألباني: حسن صحيح.

بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك بشيء إلا ما كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيءٍ، لم يضروك بشيءٍ إلا ما كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»(٣٣)، يعني تم القضاء فلا ملجأ من الله إلا إليه، فالإخلاص في مبدئه ومنتهاه مبنيٌ على التوحيد الخالص، فلا بد أن تُخرج السوى من قلبك، ولا يبقى فيه إلا الله، وهو أول أركان المناجاة.

أما الركن الثاني فهو: الاستمرار والدوام؛ فعن عَائِشَةَ –رضي الله عنها– أَنَّهَا قَالَتْ سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ: «أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»(٣٤). والديمومة ركنٌ من أركان عمارة الأرض، ونجاح العمل، ومن شأنه أن يربي الصدق مع الله، ومن شأنه أن يستجيب الله سبحانه وتعالى معه لمناجاة العبد.

والركن الثالث هو: التدبر والتأمل، وقد حُرِمْنا في عصرنا هذا كثيراً من التدبر والتأمل، فالمناجاة تحتاج أن تتحدث مع ربك بعد تفكرٍ وتدبر: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد:٢٤]، ويمدح الله تعالى هذه الملكة فيقول سبحانه: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا

خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [آل عمران:١٩١] فهؤلاء دعوا الله تعالى بعد الذكر والفكر، فالمناجاة لا بد أن تشتمل على الفكر، والفكر إما أن يكون في كتاب الله المنظور، وهو الكون، وما يشمله، فيتفكر في السماء، والأرض، في النبات، والحيوان، بل في ذات الإنسان.قال تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) [النحل:١٨]، وإما أن يكون في كتاب الله المسطور وهو القرآن، قال تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) [النساء:٨٢]. إن التفكر نعمةٌ حُرمنا منها، فأصبحت الحياة سريعة لا نقف أمامها ولا نتفكر في أحداثها ومقتضياتها، وأصبحت الأحداث متتالية، فتقدم السعي قبل الوعي، ومراد الله منا أن يتقدم الوعي قبل السعي، قبل أن تسعى يجب أن تتدبر، وأن تتأمل، وأن تتفكر؛ وترقب قول

٣٣– سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق:
أحمد محمد شاكر، ج٤ | ص٦٦٧، رقم ٢٥١٦، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

٣٤ – سنن أبي داود ،أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) المحقق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

الغزالي في كتابه الإحياء: (كثر الحثّ في كتاب اللّه تعالى على التّدبّر والاعتبار والنّظر والافتكار، ولا يخفى أنّ الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر النّاس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره)([٣٥]).

والركن الرابع في المناجاة هو: أنك تدعو ربك بما في قلبك، تحدثه سبحانه وتعالى وتناجيه، وتكلمه، وتشكو له، وترجوه، وتتضرع إليه، وتتوسل إليه، وتطلب منه.

والركن الخامس والأخير هو: السِّرِّيَّة، فالمناجاة سرٌ بين العبد وربه لا يَطَّلِع عليه أحد، فإذا فعلنا هذه الأركان الخمسة استطعنا العودة إلى الله سبحانه وتعالى فيستجيب لنا، فإذا استجاب الله لنا –لأننا عدنا إليه– تَقَوَّى إيماننا وصلب.

المناجاة في القرآن والسنة:

أولاً: المناجاة القرآنية – نماذج مختارة

ورد لفظ المناجاة بمشتقاته كثيرا في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ، سورة المجادلة آية ٩، وقوله:

إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة [المجادلة: ١٢] . وهو مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي كأن المتناجيين منعا إدخال غيرهما معهما وتباعدا من غيرهما، قال ابن عطية: " وصَّى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأن لا يكون لهم تناجٍ في مكروه، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة. وخص «الإثم» بالذكر لعمومه وَالْعُدْوانِ لعظمته في نفسه، إذ هي ظلامات العباد، وكذلك مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ذكرها طعنا على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك"([٣٦]). و (المناجاة) عمليا وممارسة طبقها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام في مناجاتهم لربهم سبحانه وتعالى ودعائهم إياه ، من لدن آدم عليه السسلام حتى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والمتتبع لحياة الأنبياء يرى أن النشأة الحقيقية للمناجاة إنما كانت على أيديهم

[٣٥] – أركان المناجاة: الإثنين, ٠٨ ديسمبر ٢٠١٤ ٠٠:٠٠ كتبه أ. د. علي جمعة، من صفحته على الفيسبوك
%gomaa٢٠%ali٢٠%https://www.facebook.com/search/top/?q=dr.

[٣٦] – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ، ٥ | ٢٧٧.

عليهم السلام. كما يعد القرآن الكريم الأسبق في اشتماله على المناجاة، التي تحتل حيزاً كبيراً في القصص القرآني، وأول ما نعرض له مناجاة سيدنا آدم – عليه السلام– وزوجته وهما يتضرعان لله عَّز وجل بعدما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها قائلين: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) سورة الأعراف، لما سمعا من ربهما ما سمعا قالا متضرعين متذللين معترفين على زلتهما رَبَّنا يا من ربانا على فطرة الهداية والرشد قد ظَلَمْنا أَنْفُسَنا بمتابعة عدونا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا ولم تتجاوز عنا وَلم تَرْحَمْنا بفضلك وجودك لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ خسرانا عظيما". (٣٧)

وفي مناجاة نبي الله نوح عليه السلام: فدعا ربه أني مغلوب فانتصر(سورة القمر، آية ١١) يقول الفخرالرازي: "فقال نوح: يا إلهي إن نفسي غلبتني وقد أمرتني بالدعاء عليهم فأهلكهم"(٣٨)، وكأنه يقول لربه : انتصر أنت فالأمر أمرك، والدعوة دعوتك. وقد انتهى دوري. وما يكاد نوح عليه السلام يناجي ربه سبحانه، حتى يأتي الله بأمره مسخراً الكون كله لنجدته ونصرته ، قال تعالى: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢).

وفي مناجاة نبي الله إبراهيم عليه السلام لخالقه جل جلاله إذ يقول {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ(٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)}سورة إبراهيم، يظهر عمق إيمانه وتعلقه بربه، كما يظهر إيمانه بقدرة الله على الاستجابة لدعوة المتضرع له و المحتاج إليه. كما يتجلى لنا بديع مناجاته في دعائه –عليه السلام–:(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (١٢٨) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (١٢٩) وفي هذا التكرار مايضفي على النص القرآني قيمة معنوية بذكر الله تعالى، وبما يوحيه من التجائه

٣٧– الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، المؤلف: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر – الغورية، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م، ص ٢٤٥.

٣٨ – مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ، ج٢٩، ص ٢٩٥.

– عليه السلام – إلى المناجاة والدعاء بعد رفعه قواعد البيت الحرام لتأدية مناسك الحج أولا ، وبعث الرسول المنتظر آخراً.([٣٩])

ويلتجئ سيدنا يوسف عليه السلام إلى الله عَّز وجل بعد دعوة امرأة العزيز له، وتهديدها وتوعدها لإرغامه على طاعتها في المعصية مناجيا الله بالقول: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} سورة يوسف، آية ٣٣، ٣٤.قال الزمخشري: وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدّم الدعاء، لأنّ قوله وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف السَّمِيعُ لدعوات الملتجئين إليه الْعَلِيمُ بأحوالهم وما يصلحهم.([٤٠])وفي ختام قصة سيدنا يوسف عليه السلام يسدل الستار بأروع الابتهالات و الدعوات لله تعالى التي تتمثل في مناجاته لربه بحسن الخاتمة قائلا: رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين(١٠١).

وتأمل هذه المناجاة الهامسة الرقيقة من نبي الله أيوب عليه السلام وهو متوجه بكليته إلى ربه في قمة مأساته طالبا الرحمة ورفع الضر عنه قائلا: وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين (٨٣) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين (٨٤)سورة الأنبياء، قال البغوي: قوله: أني مسني الضر، وأني مسني الشيطان بنصب ، قيل ليس هذا بشكاية إنما هو دعاء بدليل قوله تعالى: فاستجبنا

[٣٩] –المناجاة في القصص القرآني،د بان حميد فرحان، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، العدد الأول، ص ٦٣،

[٤٠] –الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)

الناشر: دار الكتاب العربي — بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ، ٢ | ٤٦٧.

له، على أن الجزع إنما هو في الشكوى إلى الخلق فأما الشكوى إلى الله عز وجل فلا يكون جزعا ولا ترك صبرا كما قال يعقوب: نما أشكوا بثي وحزني إلى الله" .(٤١)

وقد وجد سيدنا يونس عليه السلام ملاذه وسلواه في مناجاة الله عز وجل وهو في جوف الحوت وفي ظلمات البحر إذ يقول عَّز وجل : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) سورة الأنبياء، والمالحظ في مناجاته – عليه السالم- بالقول: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) وذكر ذي النون في جملة من خصوا بالذكر من الأنبياء لأجل ما في قصته من الآيات في الالتجاء إلى الله والندم على ما صدر منه من الجزع واستجابة الله تعالى له.(٤٢).

أما عن مناجاة داود عليه السلام: يروى عن النبي داود عليه السلام أنه كان كثير البكاء، حتى عوتب في ذلك فقال «: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء »(٤٣). والله تعالى يحب الملحين في الدعاء، ومن باب كثرة مناجاة الله عز وجل؛ لأن الإنسان المحب لله يحب أن يكثر مناجاته، لأن الحبيب يحب طول المناجاة مع حبيبه . وكان عليه السلام ينادي « ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت »(٤٤)، ويروى عنه عليه السلام أنه كان يقول في إحدى مناجياته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ، ضاقت علي الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني ، فبؤسا للقانطين من رحمتك»(٤٥)

وتظهر مناجاة موسى عليه السلام قبل بعثته حين قتل الرجل القبطي، فلجأ إلى ركن الله الشديد طالبا منه الغفو والصفح، قال الحق جل جلاله: قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) ونلحظ هنا أن مناجاة موسى مناجاة توبة ، قال القشيري:

٤١– معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ)، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ، ٢ | ٣١٠.

٤٢ – التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد«، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ج١٧ /ص ١٣٣)

٤٣– أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج،٤ دار المعرفة، بيروت ، د ت، ص١٨٢

٤٤ – إحياء علوم الدين، ج،٤، ص ١٨٢.

٤٥ – إحياء علوم الدين، ج،٤، ص ١٨٢.

"تاب موسى عمّا جرى على يده، واستغفر ربّه، وأخبر الله أنه غفر له، ولا عتاب بعد المغفرة"([٤٦]).ومن حسن نظم الآية أنها جمعت الندم والاستغفار مع الغفران، أي أنها جمعت الدعاء مع الإجابة في موضع واحد ([٤٧]).

وبعد بعثة موسى عليه السلام امتن الله عليه في قوله تعالى: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) سورة مريم، أي: مناجيا،قال ابن عباس: معناه قربه فكلمه، ومعنى التقريب إسماعه كلامه. وقيل: رفعه على الحجب حتى سمع صرير القلم.([٤٨])وفي مناجاة الله لموسى: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي – إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى – فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) [طه: ١٤-١٦] . ويمكن أن نتلمس مناجاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مواقف كثيرة أذكر منها دعاءه واستغاثته بالله تعالى بعد ما تعرض له في الطائف:(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، أرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني ، إلى عدو يتجهمني ، أو إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) ([٤٩]).ولا شك بأن مناجاة الرسول صلى االله عليه وسلم جاءت على أكمل وجه فهي « ضياء في ضياء، ونور في نور على نور، إن حبه العظيم الله عز وجل، ومعرفته االله معرفة حقيقية، جعلت من مناجاته الشريفة أضواء البيان لمن أراد مناجاة الرحمن.([٥٠])

---

[٤٦] –لطائف الإشارات = تفسير القشيري، المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني
الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة، ٣ | ٥٨.

[٤٧]– الدعاء المعاني والصيغ وألنواع (دراسة قرآنية)، د. محمد محمود عبود زوين، مركز الرسالة، سلسلة المعارف الإسلامية ،٦٦ ص١١٣ .

[٤٨] –معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ)، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ، ٣ | ٢٣٧.

[٤٩]– رواه الطبراني في " الدعاء " (ص/٣١٥) واللفظ له – وعزاه بعض أهل العلم إلى " المعجم الكبير " للطبراني–، ومن طريقه الضياء المقدسي في " المختار " (١٧٩/٩) ، ورواه ابن عدي في " الكامل " (١١١/٦) ، ومن طريقه ابن عساكر (١٥٢/٤٩) ، ورواه الخطيب البغدادي في " الجامع لأخلاق الراوي " (٢٧٥/٢) أبو محمد عبد االله بن هشام، مختصر سيرة ابن هشام (السيرة النبوية)، ص .٨٢.

[٥٠]– أحمد خليل جمعة، المناجاة : فضلها . صدقها . ، دار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٩٩٥ ص .٣٥،٣٦

The International Journal of Islamic Studies and Culture (IJISC)
Volume 3, Bil. 1, May (2024)
ISSN: 2948-3778 e-ISSN: 2948-3913 https://ijisc.unishams.edu.my

ولفظ المناجاة في السنة النبوية المطهرة: جاء للتغليظ في مناجاة الاثنين دون صاحبهما في السفر، وأن ذلك لا يحل لهما، من حديث ابن لهيعة، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه – عليه السلام قال: "لا يتناجى اثنان دون ثالث فإن ذلك يحزنه"(٥١) قال النووي: ونهي عن تناجي اثنين دون ثلاثة، وكذا ثالث وأكثر بحضرة واحد تحريم، فيحرم على الجماعة المناجاة دون واحد منهم، إلا أن يأذن"(٥٢).

مناجاة الصحابة رضي الله عنهم: سار الصحابة على درب النبوة في صدق اللجوء إلى الله إذا ألَمَّ بهم خَطْبٌ أو نزلتْ بهم نازلة، وأذكر نماذج لبعضها، والغرض الذي أتوخاه من سوق هذه النماذج إثبات أصالة المناجاة كخطاب نثري له أثره العميق في الحياة الروحية للسالكين.

مناجاة أبي بكر رضي االله عنه وما قاله عندما أرسل الجيوش إلى الشام: لما سار يزيد بجنده إلى الشام، فكان أبو بكر يدعو في كل يوم غدوة وعشيًّا بعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العصر، فيقول:"اللهم إنك خلقتنا ولم نكن شيئا، ثم بعثت إ لينا رسولا رحمة منك لنا، وفضلا منك علينا، فهديتنا وكنا ضلالا، وحببت إلينا الإيمان وكنا كفارا، وكثرتنا وكنا قليلا، وجمعتنا وكنا أشتاتا، وقويتنا وكنا ضعافا، ثم فرضت علينا الجهاد، وأمرتنا بقتال المشركين حتى يقولوا لا إله إلا االله أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغ رون. اللهم إنا نطلب رضاك ونحن نجاهد أعداءك ممن عدل بك وعبد معك غيرك، تعاليت عما يقولون علوا كثيرا . اللهم فانصر عبادك المسلمين على عدوك من المشركين. اللهم فتحا مبينا ! وانصرهم نصرا عزيزا ! واجعل لهم من لدنك سلطاناً نصيراً.."(٥٣)ونلاحظ في هذه المناجاة الضراعة إلى الله المتوحد في الجلال، يناجي أبو بكر ربه أن ينصر المؤمنين ويقطع دابر الكافرين.

ومن مناجاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: روي عن جامع بن شداد عن أبيه، قال: كان أول كلام تكلم به عمر، حين صعد المنبر، أن قال:"اللهم إني شديد فليني، و إني ضعيف فقوني، و إني بخيل فسخني. اللهم

٥١– البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣).

٥٢– انتهى من "مسلم بشرح النووي" ١٤/ ١٦٧ – ١٦٨.

٥٣– عبد الستار محفوظ، مناجاة : من دعاء الرسول صلى االله عليه وسلم والصحابة والصالحين، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩١، ص ٦٠– . المصنف، ابن أبي شيبة – عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ج٧| ص ٨٢، ٤٢٤٥ (٥٤) ما ذكر عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من الدعاء

اعصمني بحبلك وارزقني من فضلك واجعلني أحفظ أمرك . اللهم اجعل غنائي في قلبي ورغبني فيما عندك وبارك لي فيما رزقتني وأغنني مما حرمت عليَّ"(٥٤)

لذة مناجاة الله عند سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه :روي عن سعد بن أبى وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينه منى ثم لم يرد علىّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين ، هل حدث شيء في الإسلام ؟ قال لا، وما ذاك؟ قلت: لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا في المسجد فسلمت عليه، فملأ عينه منى ثم لم يرد علىّ السلام قال : فأرسل عمر إلى عثمان فقال: ما منعك ألا تكون ردت السلام على أخيك ؟قال : ما فعلت ، قال سعد: بلى ، حتى حلف وحلفت ، قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفا وأنا أحدث نفسي بكلمه سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا والله ما أن ذكرتها إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنبئك بها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوه ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته بها فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله فضربت بقدمي الأرض فالتفت إلىّ صلى الله عليه وسلم فقال : من هذا ؟ أبو إسحاق قال : قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فمه ، لا والله يا رسول الله إلا أنك ذكرت لنا دعوه ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك ، قال : نعم " دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فإنه لا يدعو مسلم ربه في أي موضع قط إلا استجاب له.(٥٥)

ومن مناجاة الإمام علي كرم االله وجهه : « إلهي، أنت أكرم من أن تضيع من ربَّيْته، أو تبعد من أدنيته، أو تُشَرِّدَ من آويته، أو تسلم إلى البلاء من كفيته ورحمته . إلهي أسألك بحقك وقدسك، وأعظم صفاتك وأسمائك، أن تجعل أوقاتي الليل والنهار بذكرك معمورة، وبخدمتك موصولة، وأعمالي عندك مقبولة؟ حتى تكون أعمالي وأورادي كلها وردا واحدا، وحالي في خدمتك سرمدا !.اللهم اجعلني من أحسن عبادك نصيبا عندك، وأقربهم مترلة منك، وأخصهم زلفى لديك؟ فإنه لا ينال ذلك إلا بفضلك، وجد لي بجودك، واعطف علي بحمدك، واحفظني برحمتك، واجعل لساني بذكرك لهجا، وقلبي بحبك متيما؟، ومُنَّ علي بحسن إجابتك، وأقلني من عثرتي، واغفر لي زلتي؟ فإنك تضيف على عبادك بعبادتك، وأمرتهم بدعائك، وضمنت لهم الإجابة، فإليك . يا

٥٥ – البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري
الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ – ١٩٨٨ م، ١ | ٢٧٢ .

رب ـ مددت يدي، يا سميع الدعاء اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء، فإنك فعال لمن تشاء »([٥٦])أي يا رب! أنت أحسنت إلي فيما مضى، ولو باعتبار زمان الطفولة.. فالإنسان عندما كان طفلا في بطن أمه، كان في رعاية الله عز وجل، حيث لا راعي سواه في ظلمات الأرحام، هو الذي نقش هذا الوجود البديع. فيا رب، أنت أحسنت إلي فيما مضى من أيام حياتي، ولو باعتبار عالم الأجنة، والآن لا تقطع إحسانك عني. إن أمير المؤمنين عليه السلام يذكرنا بهذه القاعدة الموجودة عند كرام

الناس، وهي: أن الكريم لا يقطع عطاءه إلا بموجب قوي، وإلا فإن الهفوات الجانبية عادة الكرماء يتجاوزون عنها.([٥٧])

المقامات والأحوال المرتبطة بالمناجاة الصوفية

أولا: التعريف بمصطلحي المقام والحال:

تعريف المقامات لغة: جمع مقام، والمقام جمع مقامة، ومقامات الناس: مجالسهم. ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس مقامة، ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام ويقال: أقمت بالمكان مقاما وإقامة ([٥٨])ومن هنا فالمقام يعني المجلس أو المكان الذي يتخذه الإنسان في اجتماعه، هذا بالنسبة للشيء المحسوس، أما الشيء المعنوي الذي يقابل المحسوس فإنما يعني ما يسير عليه العبد في حياته من دوام (الذكر والتوبة والصبر)

تعريف المقام عند الصوفية: يعرفه شارح المواقف بأنه: "عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكلف، فمقام كل واحد موضع إقامته عند ذلك المقتدي هو الذي أدرك الإمام مع تكبيرة الافتتاح([٥٩]).

وقد عرف المقام صاحب الرسالة القشيرية بقوله "ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب بما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك وما هو مشتغل بالرياضة له، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له

[٥٦] – عبد الستار محفوظ، مناجاة : من دعاء الرسول صلى االله عليه وسلم والصحابة والصالحين ، ص ٤٤٠.

[٥٧] -https://alseraj.net/speech%/

[٥٨] – تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى ٣٧٠ هـ)(٩ | ٢٧٠) المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م. :

[٥٩] – التعريفات، للجرجاني، صـ٢٢٧

لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد، والمقام هو الإقامة كالمدخل بمعنى الإدخال والمخرج بمعنى الإخراج، ولا يصح لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة االله تعالى إياه بذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة([٦٠]).فالقشيري يرى أن المقام عمل كسبي يقوم به العبد ويلتزم به ولا يتجاوزه إلى مقام آخر، إلا غذا استوفى شروط إقامته به.

وقال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (٥٦٥ –٦٣٨هـ) : المقام: عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام ([٦١])يعني أن المقام هو مقام العبد بين يدي الله تعالى في العبادات وسائر الطاعات، والتي قام بها العبد على وجه التمام اي باستيفاء حقوق المراسم الشرعية .

تعريف الحال في اللغة: جاء في المعجم الأوسط أن "(الحال) الوقت الذي أنت فيه والكساء يحتش فيه واللبن وحال الدهر صرفه وحال الشيء صفته وحال الإنسان ما يختص به من أموره المتغيرة الحسية والمعنوية([٦٢]) .وعليه فالحال في اللغة صفة يتحلى بها الصوفي، وذلك لأنها تتعلق بالمحسوس وغيره من الأمور المعنوية.

الحال في الاصطلاح: يعرفه الجرجاني بقوله "الحال عند أهل الحق: معنى يرد على القلب من غير تصنع، ولا اجتلاب، ولا اكتساب، من طرب، أو حزن، أو قبض، أو بسط، أو هيبة، ويزول بظهور صفات النفس، سواء يعقبه المثل أم لا"([٦٣]). فالأحوال واردات إلهية ترد على قلوب العارفين بواسطة تنوير قلوبهم الناشئ عن دوام الجد والاجتهاد في العبادة مع الإخلاص والمراقبة، ولا كسب للعبد فيها، وإنما هي مدارج للمطالب من رفيع المقامات، فإذا توالت ودامت الأمثال فصارت ملكة كان ذلك مقاما. ([٦٤]).

---

[٦٠] – الرسالة القشيرية، المؤلف : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القـ شيري (المتوفي : ٤٦٥هـ) (١/١٥٣) (المتوفى: ٤٦٥ هـ)(١/١٥٣) تحقيق : الإمام الدكتور : عبد الحليم محمود، الدكتور، الدكتور: محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

[٦١] – شرح معجم اصطلاحات الصوفية، ص ١٢، والكاشاني، اصطلاحات الصوفية ص ١٠٣)

[٦٢] – المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/٢٠٩) (إبر اهيم مصطفى/أحمد الزيات/حامد عبد القادر/محمد النجار) الناشر: دار الدعوة.

[٦٣] – كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى : ٦هـ)١/٨١) المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣–م.

[٦٤] – الشيخ السبكي ، مختصر كتاب أعذب المسالك المحمودية إلى منهج السادة الصوفية ، ص ٢٣٥،تحقيق وتقديم: سعيد عبد الفتاح، محمد البلتاجي، ط دار المنار.

وقال محيي الدين ابن عربي: الحال هو ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب . فقوله (ما يرد على القلب) أي من غير تعمد ولا تكسب من صاحبه، فهي مواهب ربانية ومنح إلهية من حكمها (أي أثرها) القبض والبسط والشوق والقلق أو الخوف إلى غير ذلك من الأحوال النفسانية"([٦٥])وهذا يبين أن المراد بالأحوال عند الصوفية معاني ترد على السالك من غير تكلف منه ولا تعمد ، خلافا للمقامات التي هي مراحل من التعمق في العبارة يصل إليها المرء بجهده ومثابرته ، وهذا هو معنى قولهم : " الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود "([٦٦]).

وقد عدَّ صاحب اللمع عشرة أحوال ، وهي (المراقبة، القرب، المحبة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الاطمئنان، المشاهدة، اليقين)([٦٧]).

وعلى هذا الأساس، فإنه لا يمكن الفصل التام والقاطع بين الأحوال والمقامات" لارتباطهما مع بعضهما بعلاقات ذات طبيعة جدلية، فالمقامات وإن كانت تختلف عن الأحوال، إلا أن العلاقة بينهما موصولة بسببين : الأول، أن هناك أحوالا مؤقتة كاللوامع و البوارق ، تتقدم مقامات من من جنسها ، فهي أحوال ممهدة ، والآخر أن المقامات تنت ج أحوالا »([٦٨]).

قال الطوسي عن معنى الحال: هو ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار . قال : وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم . وقيل أيضا : الحال: هو الذكر الخفي.([٦٩]) . ومادامت الأحوال مواهب طارئة يهبها االله لمن يشاء فإنها « تقوم بدور المحرض الذي يدفع السالك نحو الترقي والعروج صعدا في سلم المقامات، هذا فضلا عن دورها المعرفي الذوقي الذي تؤديه إلى جانب المقامات([٧٠]).

[٦٥]– شرح معجم اصطلاحات الصوفية للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، شرح سعيد هارون عاشور، ص ١٣.

[٦٦] – اصطلاحات الصوفية، ص ٧٨، وانظر: الجرجاني : التعريفات، ص ١١٠.

[٦٧] – أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، ص ٨٢

[٦٨] – أمين يوسف عودة، تجليات الشعر الصوفي :قراءة في الأحوال و المقامات، ص.٣

[٦٩] – اللمع للطوسي، ص ٦٦

[٧٠] – تجليات الشعر الصوفي :قراءة في الأحوال و المقامات، ص٣١

فالمقامات والأحوال من الأسس المهمة في بناء الخطاب الصوفي وسريانه في الأعماق، لما لها من عميق الصلة بالدين ومواصلة التدبر في ملكوت الخالق والمعايشة في انسه ووصاله، وقد اثر عن الجنيد أنه قال: " لا يبلغ العبد إلى حقيقة المعرفة وصفاء التوحيد، حتى يعبر الأحوال والمقامات" (٧١).

والمقامات المرتبطة بالمناجاة تتمثل في الشكر، والرضا، والتوكل، الصبر، الفقر، الزهد، الورع، التوبة (٧٢).

وهذه المقامات من أسباب الوصول والسير في مدارج الواصلين، فلا بد للسالك أن يجتاز المواصلات واحدة تلو الأخرى حتى يصل لمبتغاه، ف " الوصول هو الرؤية والمشاهدة بسر القلب فيالدنيا، وبعين الرأس في الآخرة، فليس معنى الوصول اتصال الذات بالذات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا"(٧٣).

ونظرا لخصوصية المناجاة، فالصوفي في مناجاته يتخذ من الصورة الرمزية وسيلة للإخفاء، إذ أن الصوفي في اتحاده بخالقه تنكشف له الأسرار والحقائق، فينفرد الصوفي بالأسرار الإلهية والحقائق الربانية فلا يدرك مكنونها إلا أصحاب المنزلة الخاصة عند خالقهم، فتلك الأسرار والحقائق لا يدرك مقصدها إلا من كان ألهم هذه الطريقة، فالمناجاة في حقيقتها هي مناجاة بين اثنين حبيب لحبيبه، والصوفي في مناجاته يبوح بما في نفسه ويخاطب به حبيبه تحقيقا لتجل أكمل للألوهية"(٧٤) .والناظر في المقامات والأحوال عند الصوفية يجد ان بينها اختلافا كثيرا حولها من حيث العدد والترتيب، والإمام أبو سليمان الداراني (ت ٢٠٥هـ أو ٢١٥هـ) أشار إلى تطور مصطلح المقامات والأحوال من حيث الترتيب والعدد ، فقد حددها بثلاث : الزهد والورع والرضا وكان يقول إنها ثلاث مقامات لا حد لها . وذكر أبو طالب المكي أن الداراني كان يرى أن لهذه المقامات حدودا: إن من تورع في كل شئ فقد بلغ حد الورع، ومن زهد في كل شئ فقد بلغ حد الزهد، ومن تورع في كل شئ فقد بلغ حد الورع).

٧١- أبو نصر السراج الطوسين اللمع، ص ٤٣٦.

٧٢- ينظر أمين يوسف عودة، تجليات الشعر الصوفي، قراءة في الأحوال والمقامات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، الأردن، ٢٠٠١م، ص١٦ .

٧٣- أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين، وعمدة السالكين ضمن رسائل الإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٢٦.

٧٤- أسماء خوالدية، ص ٧٩، الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا ل أسماء خوالدية، المجلس الأعلى للثقافة،

ونلاحظ أن الداراني استخدم المقامات في مكان الأحوال، والأحوال مكان المقامات، مما يدل على أنه لم يميز بين المقامات والأحوال .

ومن أهم المقامات الموصلة للمناجاة مقام التوكل الذي مرجعه إلى قوة الإيمان وشدة اليقين، وهو عبارة عن "الثقة بما عند االله، واليأس عما في أيدي الناس (٧٥)، يقول الإمام القشيري "واعلم أن التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل االله تعالى وإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره(٧٦)، :والتوكل لا يتم إلا بأمور:

أولا: معرفة الله ومحبته والاطلاع على نور جلاله، والانخراط في سلك الخواص من عباده(٧٧).

ثانيا: وجوب الأخذ بالأسباب والمسببات، فالله هو المريد، والممكنات كلها مستندة إليه، يقول ابن رشد الحفيد: " صاحب الإيمان الصحيح بالقدر يباشر الأسباب المباحة بيده، ويبذل معه في الأخذ بالأسباب ولا يعجز ولا يتواكل، ولكنه يعتمد على الله وحده في نجاح تلك الأسباب المبذولة لا على الأسباب ذاتها، ولقد كان كذلك سيد المرسلين وإمام المتوكلين محمد صلى الله عليه وسلم، فقد اختفى في الغار، تعليما لأمته في الأخذ بالأسباب ومباشرتها، وقد فعل ذلك لا اعتمادا على السبب نفسه ، وإنما كان اعتماده على الله العلي القدير" (٧٨).

ثالثا: وبعد الانتهاء من الأسباب إلى مسببها، وقطع النظر عن كل الممكنات، وتوجيه حدقة العقل إلى نور عالم الجلال، واستغراق الروح في أضواء عالم الكبرياء، ومن وصل إلى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهرولا تائها في ساحة كبريائه هالكا فانيا في فناء سماء أسمائه (٧٩)، "فالمتوكل على الله يأخذ بالأسباب، "باعتماده على الله وسكونه وطمأنينته واستناده إليه, قد حصنه من خوفها ورجائها، فمَثَلُه في ذلك مَثَل الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه؛ لا يعرف غيره, وليس في قلبه التفات إلى غيره, ولذلك قال بعض العلماء: المتوكِّل

٧٥–التعريفات، للجرجاني، صـ ٧٠

٧٦ –الرسالة، للقشيري (١/٢٩٨)

٧٧ –مفاتيح الغيب للرازي (٢٠ | ٢١٠٠)

٧٨ –العقل والنقل عند ابن رشد(السنة الحادية عشرة– العدد الأول) أبو أحمد محمد بن أمان بن علي جامي، جامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الحادية عشرة – العدد الأول، غرة رمضان، ١٣٨٩هـ| ١٩٧٨م.

٧٩ –مفاتيح الغيب، للرازي، (١٨ | ٤١٤).

كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمِّه, كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه" (٨٠). فالمؤمن عندما يتوكل على الله يلجأ إليه بصدق التوكل، فاللهم إنا نسألك صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك، اللهم ارزقنا قلوبًا سليمة، ونفوسًا مطمئنة نلقاك بها.

ومن المقامات المرتبطة بالمناجاة مقام الشكر: قال العلامة ابن علان الصديقي رحمه الله تعالى (ت ١٠٥٧): (الشكر: الاعتراف بالنعمة، والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكوراً، ومن ثَمَّ قال سبحانه: {وقليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣](٨١)،فهو مفتتح كل مقام ومختتمه، تولاه سبحانه بالإبانة إذ حمد نفسه، وأرشد إليه خلقه؛ لعلمه « شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه، فأخبرهم أنه حمد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله: ﴿الحمد لله﴾ فانتعشوا بعد الذلة، وعاشوا بعد الخمود، واستقلت أسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق..»(٨٢). جعله ربنا سبحانه غاية من أمره وشريعته، وهدفا أسمى من خلقه وخليقته، فقال تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النحل:٧٨]، ثم قضى سبحانه به على عباده فقال: ﴿واشكروا لي﴾ [البقرة:١٥١]، ونهى عن نقيضه بكل ضروبه فقال: ﴿ولا تكفرون﴾[البقرة:١٥١] فما يسع المؤمن إلا اللهج بالشكر لله على ما به من النعم الظاهرة والباطنة (٨٣)،وأوفر الله الجزاء للشاكرين، وأعظم النوال للذاكرين، فوعدهم . ووعده حق لايتخلف . بحفظ النعم وإدامتها، والزيادة في العطاء ونمائه فقال تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ [إبراهيم:٩] قال القرطبي: «والآية تنص على أن الشكر سبب المزيد»(٨٤).والشكر من أعلى المقامات، وهو على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بسائر الأركان. فشكر القلب: أن يعتقد أن النعم كلها من الله، وشكر اللسان: الثناء على الله وكثرة المدح له، وشكر الجوارح: أن يعمل العمل الصالح. الناس في تحققهم بالشكر على مراتب متفاوتة: فالعوام يشكرون الله على النعم فقط.والخواص يشكرون الله على النعم والنقم، ويشهدون فضله وإنعامه عليهم في جميع أحوالهم، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على مَنْ تصيبه نقمة فيقابلها بالحمد باللسان، والرضا بالجنان، وشكر خواص الخواص: غيبتهم في المنعم عن رؤية

٨٠ – مدارج السالكين، لابن القيم (٢/١٢١).

٨١–دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين" ج٢، ص٥٧

٨٢ – لطائف الإشارات لأبي القاسم زين الإسلام القشيري:١/٤٥.

٨٣ – التحرير والتنوير: ١٥/١٩٣.

٨٤– الجامع لأحكام القرآن: ٩/٣٤٣.

النعم والنقم وفي هذا المعنى قال الشبلي رحمه الله تعالى: (الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة)([٨٥]). ومن المناجاة بالشكر لله تعالى قول الإمام الجواد: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَرَدِّ نَوَازِلِ الْبَلَاءِ وَ تَوَالِي سُبُوغِ النَّعْمَاءِ وَ مُلِمَّاتِ الضَّرَّاءِ وَ كَشْفِ نَوَائِبِ اللَّأْوَاءِ وَ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى هَنِيءِ عَطَائِكَ وَ مَحْمُودِ بَلَائِكَ وَ جَلِيلِ آلَائِكَ وَ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى إِحْسَانِكَ الْكَثِيرِ وَ خَيْرِكَ الْغَزِيرِ وَ تَكْلِيفِكَ الْيَسِيرِ وَ دَفْعِ الْعَسِيرِ" ([٨٦]).

ومن المقامات المرتبطة بالمناجاة مقام الرضا: الرضا من أسمى المقامات الروحية، وأرفع المراتب القلبية، إذا تحقق به المؤمن استطاع أن يتلقى مصائب ونوائب الحدثان بإيمان راسخ ونفس راضية، وقلب مطمئن، بل قد يسر بمر القضاء، ويفرح بشدة الابتلاء، قال أبو طالب المكي: " اعلم أن الرضا من مقامات اليقين وأحوال المحبين ومشاهدة المتوكلين " ([٨٧])، وقال ابن عطاء الله السَّكَنْدَري :" وإنما صبرهم على القضاء علمهم بأن الصبر يورث الرضا" ([٨٨])،

وذلك أن من صبر على أحكام الله أورثه ذلك الرضا من الله، فتحملوا حرارتها طلبا لرضاه، كما يتحسى الدواء المر لما يرجى فيه من عاقبة الشفاء ([٨٩])،فالرضا نتاج التوحيد الخالص المبرأ من كل شرك خفي، وثمرة اليقين بالله فلا يخشى سواه، ولا يؤمل غيره، ولا يتوكل إلا عليه، قال ابن عطاء الله: الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار االله تعالى للعبد، لأنه يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط ([٩٠]). فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجاءه، والإنابة إليه، والرضا بتدبيره، وأن يكون راضيا بكل ما يفعل االله به. وبناء عليه فإن المقامات المرتبطة بالمناجاة تسمى مقامات الوصول وتشمل مقام الرضا والشكر والتوكل، فالصوفي وهو في مجاهدات الوصول إلى الله تعالى" لا يجد لذة أجمل من تقربه إليه بالأذكار والنوافل والطاعات فهو عبد شاكر راض متوكل عليه تعالى" ([٩١]) ويؤكد هذا قول مسلم بن يسار (توفى سنة ١٠٠ هـ) : ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل . وقال مسلم العابد : لولا الجماعة ، ما خرجت من بابي أبدا حتى أموت ، وقال

---

[٨٥] –الرسالة القشيرية" ص٨١].

[٨٦]–مهج الدعوات و منهج العبادات، ص ٣٩،علي بن موسى ابن طاووس، انتشارات كتابخانة سنائي،تاريخ النشر: ١٣٢٣هـ

[٨٧] – أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، القاهرة، حققه إبراهيم محمد الرضواني، القاهرة، مكتبة دار التراث، ٢٠٠١، ج ٢، ص ١٠٢٥.

[٨٨] – ابن عطاء االله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، القاهرة، المطبعة الوهبية، ١٣٠٠هـ، ص ٢٥.

[٨٩]– المصدر السابق، ص١١.

[٩٠]–أبو نصر السراج الطوسي، اللمع في التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٦م، ص ٩٠.

[٩١] –حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، ص ٢٦٥.

: ما يجد المطيعون لله لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم ، ولا أحسب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر في صدورهم وألذ في قلوبهم من النظر إليه ، ثم غشي عليه "([٩٢]).وقال بكر المزني(مات سنة ١٠٨ هـ) : من مثلك يا ابن آدم : خلي بينك وبين المحراب والماء كلما شئت دخلت على الله عز وجل ، ليس بينك وبينه ترجمان . ومن وصل إلى استحضار هذا في حال ذكره الله وعبادته ، استأنس بالله ، واستوحش من خلقه ضرورة . قال ثور بن يزيد : قرأت في بعض الكتب أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحواريين ، كلموا الله كثيرا ، وكلموا الناس قليلا قالوا : كيف نكلم الله كثيرا ؟ قال : اخلوا بمناجاته، اخلوا بدعائه "([٩٣]).

الأحوال المرتبطة بالمناجاة:

ومن الأحوال المرتبطة بالمناجاة :

أولاً: حال المراقبة:

المراقبة عند الصوفية هي "استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله" وقد عرفها الشيخ ابن عجيبة (١١٦٢ – ١٢٢٤ هـ / ١٧٤٨ – ١٨٠٩ م) قائلا : ‘‘المراقبة : إدامة علم العبد بإطلاع الرب، أو القيام بحقوق الله سرا وجهرا خالصا من الأوهام، صادقا في الاحترام، وهي أصل كل خير، وبقدرها تكون المشاهدة، فمن عظمت مراقبته، عظمت بعد ذلك مشاهدته. فمراقبة أهل الظاهر: حفظ الجوارح من الهفوات، ومراقبة أهل الباطن: حفظ القلوب من الاسترسال مع الخواطر والغفلات، ومراقبة أهل باطن الباطن: حفظ السر من المساكنة إلى غير الله ‘‘([٩٤])، فالعبد حينما يعلم أن االله وحده هو المطلع عليه في جميع أحواله، ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإنه لا يمكن أن يقترف ذنباً سواء أكان صغيراً أم كبيراً. يقول حجة الإسلام الغزالي" وصف المراقبة للعبد إنما يحمد إذا كانت مراقبته لربه وقلبه وذلك بأن يعلم أن االله تعالى رقيبه وشاهده في كل حال، ويعلم أن نفسه عدو له وأن الشيطان عدو له، وأنهما ينتهزان منه الفرص حتى يحملانه على الغفلة والمخالفة، فيأخذ منهما حذره بأن يلاحظ مكانهما وتلبيسهما ومواضع انبعاثهما، حتى يسد عليهما المنافذ والمجاري، فهذه مراقبته"

[٩٢] –جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي – عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ص٤٧، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ –١٩٨٧م.

[٩٣] –المرجع السابق ص ٤٦.

[٩٤]–معراج التشوف إلى حقائق التصوف، عبد الله أحمد بن عجيبة، تحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي،ص.٣١.٣٢

([٩٥])،و''سئل ابن عطاء : ما أفضل الطاعات؟ فقال : مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الواسطي : أفضل الطاعات حفظ الأوقات، وهو: أن لا يطالع العبد غير حده، ولا يراقب غير ربه، ولا يقارن غير وقته"([٩٦])، وعليه فإن المراقبة معناها أن يكون حال العبد دائماً وأبداً في حال مراقبة في جميع أعماله الظاهرة والباطنة. جمع بين المعرفة لله والخشية منه سبحانه، فهو سبيل الشهود، وطريق المكاشفة، كما قرر أحد تلامذة الجنيد وأصفيائه بقيله: «من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة»([٩٧]).وإليه الإشارة بقول الهروي رحمه الله (٣٩٦ هـ-٤٨١ هـ): « الدرجة الأولى: مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام، بين تعظيم مذهل، ومداناة حاملة، وسرور باعث »([٩٨]).وعلى الترقي وعدم الريب تصفو المناجاة، ويتمحض الإقبال؛ وهو ما أشار إليه الإمام النووي عند قوله صلى الله عليه وسلم ﴿أن تعبد الله كأنك تراه﴾ وعليه يتنزل مصطلح «التخايل» في قول عبد الله بن عمر لعروة بن الزبير:

«أكنت ذكرتَ لي سودة بنت عبد الله ونحن في الطواف نتخايل الله عز وجل بين أعيننا، وكنتَ قادرا أن تلقاني في غير ذلك الموطن؟([٩٩]).

ثانياً: حال القرب:

القرب معناه: هو قرب العبد من االله تعالى بكل ما تعطيه السعادة، لا قرب الحق من العبد، فإنه من حيث دلالة: (وهو معكم أينما كنتم) سورة الحديد من الآية:٤ ، قرب عام، سواء أكان العبد سعيدا أم شقيا([١٠٠]). فالقرب من االله منة لا ينالها إلا ذو حظ عظيم، وشرف كبير في قربه من مولاه، وهذا يعني غاية السعادة القصوى في القرب الإلهي بالمواظبة على الطاعات والبعد عن المعاصي والملذات ابتغاء رضوان الله.

---

[٩٥] -المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء االله الحسنى، المؤلف : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥ هـ) (١/١١٨) المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي،الناشر: الجفان والجابي – قبرص، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

[٩٦]-معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص ٣٣٦.

[٩٧]- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن قيم الجوزية: ٦٥/٢.

[٩٨]- منازل السائرين لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي: ٣٨ .

[٩٩] -أخرجه أبو نعيم في الحلية، قال: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، ثنا بشر بن موسى، ثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، ثنا حرملة، حدثني أبو الأسود، قال: سمعت عروة بن الزبير.. ن حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٣٠٩/١.

[١٠٠]-التعريفات، للجرجاني، صـ١٧٤.

تختزل التجربة الصوفية في كل أبعادها رحلة العارفين نحو الاتصال المطلق بالأصل الإلهي، وهي الرحلة التي يدججها الشوق ويؤسسها الألم واللوعة ويجاذبها جدل الحب والموت رغبة في محو آثار الاغتراب المؤسس لوجود الصوفي (١٠١)

وعرف القشيري (٣٧٦ – ٤٦٥ هـ) القرب بقوله: " أول رتبة في القرب: القرب من طاعته والإنصاف في دوام الأوقات بعبادته، وأما البعد فهو التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته، فأول البعد بعد عن التوفيق، ثم بعد عن التحقيق، قال صلى الله عليه وسلم: " ما تقرب إلي المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبني وأحبه، فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، فبي يسمع وبي يبصر (١٠٢).

وعند ابن عربي(توفي في دمشق عام ٦٣٨هـ) القرب له مفهوم ذو خصيصة وجودية فيقول:" ولولا السماء الإلهية وحكمها في الأكوان، ما ظهر حكم القرب والبعد في العالم" (١٠٣)، والقرب بحسبه ينقسم إلى قسمين: الأول هو ما يسميه بالقرب العام ويقصد به القيام بالطاعات (١٠٤)، وهو شارة سعادة العبد وبه ينجو من الشقاء. وأما الثاني: فهو قرب العارفين، ومؤداه أن الحق دائم التجلي في صور العباد والأكوان، يقول:" فيكون العبد معه حيث تجلى دائما، كما لا يخلو العبد من أنيته دائما، والله معه أينما كان، فأينية الحق صورة ما تجلى فيها، فالعارفون لا

يزالون في شهود القرب دائمين، لأنهم لا يزالون في شهادة الصور في نفوسهم وفي غير نفوسهم وليس إلا تجلي الحق"(١٠٥).

ثالثاً: حال الشوق:

اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق(١٠٦)، فالقلب يشتاق إلى محبوبه كما يقول السيد الشريف: "الشوق: نزاع القلب إلى لقاء المحبوب"(١٠٧) وقال ابن عربي: ‘‘الشوق هو ما يسكن باللقاء،

١٠١ –أبعاد التجربة الصوفية: الحب –الإنصات– الحكاية، منصف عبدالحق، إفريقيا الشرق البيضاء، ط١، ٢٠٠٧م، ص٥٦.

١٠٢ –القشيري، الرسالة القشيرية، شرح أبي يحيى زكريا الأنصاري، ط٣، دار السلام لطباعة مصر، ٢٠٠٧م، ص ٥١.

١٠٣– ابن عربي، الفتوحات المكية، ط دار صادر بيروت، دت ، ج٢، ص ٥٥٨.

١٠٤–د نظلة الجبوري، نصوص المصطلح الصوفي في الإسلام، دار الكتب الوطنية، بغداد، ١٩٩٩م، ص ١٣٦.

١٠٥–ابن عربي ، الفتوحات المكية، ج٢، ص ٥٥٨.

١٠٦ –الرسالة، للقشيري (٢/٤٩٦).

١٠٧ –التعريفات، للجرجاني (١/١٢٩).

فإنه هبوب القلب إلى غائب، فإذا ورد سكن''،(١٠٨) وقد سئل الجنيد: ''من أي يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال إنما يكون ذلك سروراً به، من شدة الشوق''(١٠٩). إن أعظم وأرقى شعور في الوجود، هو حب الله تعالى، والاشتياق إليه، وإلى حبيبه المصطفى ﷺ. فقد كان سيدنا محمد ﷺ يقول في دعائه: (...اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ... وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ" (١١٠)، والواقع أن الشوق ملازم للمحبة، كيف لا والمشتاق إليه هو رب العزة والملكوت، المتنزه عن كل التشبيهات والنعوت، وشوقه ذاك أذهب الضلال، وأتى بالنور، وأبدل الكدرات بالطمأنينة والسرور، يقول المحاسبي: (توفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ): ''الشوق هو سراج نور من نور المحبة، غير أنه زائد على نور المحبة الأصلية، والمحبة الأصلية هي نور الإيمان''.(١١١) فكلما كان حبك للشيء كبيرا كلما كان شوقك له أكبر، وفي تصاعد مستمر، وقد صدق أحمد بن قدامة المقدسي(توفي عام ٦٢٠هـ) حين لخص ذلك في قوله: ''الشوق ثمرة من ثمارها المحبة، فإن من أحب شيئا اشتاق إليه''.(١١٢) وفي نفس الصدد يقول القشيري (٣٧٦ – ٤٦٥ هـ): ''الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق''(١١٣).أما ابن القيم الجوزية (٦٩١هـ – ٧٥١هـ/١٢٩٢م –

١٣٥٠م) فقد قسم الشوق إلى ثلاث درجات''–:الدرجة الأولى : شوق العابد إلى الجنة، ليَأمَن الخائف ويفرح الحزين، ويظفر الآمل، يعني شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث. الدرجة الثانية: شوق إلى الله عز وجل، زرعه الحب الذي ينبت على حافات (المنن)،[جوانبه] فعلق قلبه بصفاته المقدسة، فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه، وآيات بره، وأعلام فضله. الدرجة الثالثة: نار أضرمها صفوة المحبة، فنغصت العيش، وسلبت السلوة، ولم يكفها قرار دون اللقاء''.(١١٤)

رابعا: حال الحب:

---

١٠٨ –معراج التشوف إلى حقائق التصوف، أحمد بن عجيبة، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ط ١/٢٠٠٤م، ص:٣٦.

١٠٩–موسوعة الكسنزان، ١٢/ ٣٤٣.

١١٠– سنن النسائي، تحقيق: السيد محمد السيد، و علي محمد علي، دار الحديث–القاهرة، ط١٩٩٩م، كتاب: السهو، رقم ١٣٠٤.

١١١–الرسالة القشيرية، ص:٣٣٣.

١١٢ –موسوعة الكسنزان، ١٢/ ٣٣٨.

١١٣–الرسالة القشيرية، ص: ٣٢٩.

١١٤–مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية، تحقيق: عماد عامر، دار الحديث، ط ٢٠٠٥م، ٣/٥٠–٥١.

تعتبر المحبة في التصوف الإسلامي حالة شريفة، لتعلقها بأعمال القلوب، وهي أرفع عن كونها مقاماً، فالحب معناه كما قال القشيري: "اسم لصفاء المودة؛ لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان وقيل: الحباب: ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذا المحبة غليان القلب وتوارنه عند العطش، والاهتياج إلى لقاء المحبوب، وقيل: إنه مشتق من حباب الماء بفتح الحاء وهو معظمه فسمى بذلك؛ لأن المحبة غاية معظم ما في القلب من المهمات وقيل: اشتقاقه من اللزوم والثبات، يقال: أحب البعير وهو أن يبرك فلا يقوم، فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه وقيل: الحب مأخوذ من الحب وهو القرط"(١١٥)، فيتضح من خلال النص السابق أن الحب الإلهي هو ثبات الصوفي على معرفة االله تعالى معرفة لا يشوبها شك ولا ريبة. وارتبط مفهوم الحب الإلهي في تاريخ الفكر العربي الإسلامي بالصوفيّة، وأفرد الصوفيّون مساحات واسعة من كتاباتهم لموضوع الحب الإلهي باعتباره من أجلّ أنواع السلوك التي يتوجب على المؤمن اتباعها إذا أراد أن يحوز على حب الله ، وبدأت تظهر في عباداتهم وصلواتهم أشكال مختلفة من السلوك الإيماني الذي كان برأيهم يميزهم عن غيرهم من المسلمين . قال أبو طالب المكي " أن المحبّة أكمل مقامات العارفين . وهي إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين " ويقول " فالمحبة تكون هبة من الله تعالى لأصفيائه من الأولياء ، وهي أكمل أنواع المقامات التي يحققها المؤمن " و "كل مؤمن بالله فهو محب لله ، ولكن محبته على قدر إيمانه ، وكشف مشاهدته ، وتجلي المحبوب له على وصف أوصافه"(١١٦)،وقال سهل بن عبدالله التستري: المحبة: موافقة القلوب لله، والتزام الموافقة لله، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، مع دوام الاستهتار بذكر الله ووجود حلاوة المناجاة لله(١١٧)

كانت رابعة العدويّة ((١٠٠هـ / ٧١٧م – ١٨٠هـ / ٧٩٦م) أوّل من قال بحب الله بلا علّة وهي من أقدم المتصّوفين في تاريخ التصوّف الإسلامي ، فقد وصلت في بدايات حركة التصوّف إلى مرحلة متقدّمة في حب الله ، ماجعلها تحمل لقب " شهيدة العشق الإلهي " (١١٨) . فقد نذرت حياتها لحب الله ، بعد أن هجرت الدنيا ، واعتزلت حياة الناس ومن أقوالها:

أحبك حبين حب الهوى وحبّاً لأنّك أهل لذاكا

١١٥ – الرسالة، للقشيري (٢/٤٨٦).

١١٦ – أبو طالب المكّي ، قوت القلوب ، ج١ ، مكتبة مصفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٠ .

١١٧–قواعد التصوف، زروق الفاسي، تحقيق عبدالمجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م، ص ٢١.

١١٨– عبد الرحمن بدوي ، شهيدة العشق الإلهي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ط٤ ، ص ١٠ .

فأمّا الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمّن سواكا

وأمّا الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولاذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا ([١١٩])

ويشرح الغزالي (٤٥٠ هـ – ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨م – ١١١١م). هذه الأبيات لرابعة بقوله " ولعلّها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها ، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبّه بما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبّين وأقواهما"([١٢٠]). إن ماتريده رابعة هو مايريده جميع الصوفيّة هو حب الله دون سبب ، ودون نتيجة ، بل الحب للحب ، بل هو الفناء في الله"([١٢١])، فالحب والفناء في المحبوب جعلها لا ترغب به في النعيم، ولا تحذر من العذاب، وإنما تتماهى في ذات المحبوب تناجيه، وتذوب جوى في عشقه لذاته ورغبة فيه، لذا فهي أول من توجه بالأدب الصوفي " هذه الوجهة الوجدانية الروحية، وجعل للحب غاية مثالية، فلا ينشد لرغبة أو لرهبة، بل للحب ذاته " ([١٢٢]) .ولا يخفى أن علاقة الحب بالمناجاة علاقة كلية تلازمية، لأن المحب يأنس بمحبوبه ويتماهى فيه، وينشغل به ملتمساً عطفه ورضاه وقربه ووصاله.

فالحب لله من وجهة نظر رابعة تبين لنا موقفين بالنسبة لها : الأوّل : أنها تركت كل أشكال الحب الدنيوي ، والثاني : أن حبّها لله لم يترك في قلبها أي مكان مهما صغر لحب دنيوي ، فقد شغلها حب الله عن كل حب " لأن الصوفي بالمعنى الوجودي هو ذلك الذي يعزف عن الرضا لأنّه ينطوي على فكرة سلبية خالصة ، فتراه دائماً في

خوف على أعماله "([١٢٣]). ومن ذاق المحبة الإلهية « سهر الليل بمناجاة الجليل ، والحنين إلى الغروب شوقا إلى الخلوة بالمحبوب ومناجاة سرائر الوجد، ومطالعة الغيوب »([١٢٤]).لذلك ، فإن نهاية الكمال تكون للمحبين لأن همهم كان دائما « طلب النجاة، وكانت لذتهم في المناجاة، فارتفع لهم القدر وعلا الجاه، لو رأيتهم في الأسحار وقد حار الخائف بين اعتذار ، واستغفار، ولطائف، يتخلل ذلك دمع غزير ذارف، يرمز إلى شوق شديد

[١١٩] – الغزالي ، إحياء علوم الدين ، عالم الكتب ، دمشق ، د . ت ، ج٤ ، ص ٢٦٦ .

[١٢٠] –الغزالي ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

[١٢١] –.محمد فاروق النبهان ، مباديء الفكر الصّوفي ، مكتبة دار التراث ، حلب ، ط١ ، ٢٠٠٥ ، ص ٧٨٣ .

[١٢٢] –عادل كامل الألوسي، الحب والتصوف عند العرب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٨١.

[١٢٣] – عبد الرحمن بدوي ، شهيدة العشق الإلهي ،ص ١١١.

[١٢٤] – أبو طالب محمد بن علي المكي،قوت القلوب في معاملة المحبوب،ج،٢دار الفكر،بيروت، د ت ،ص٦٠

متكاثف"([١٢٥]) .هذا الحب الذي جعل ابن الفارض يناجي محبوبه ويرجو منه مده وزيادته تحيرا في الحب لكي يستأنس بالوصال والقرب فقال:

زِدْني بفَرْطِ الحُبّ فيك تَحَيّرا –وارْحَمْ حشىً بلَظَى هواكَ تسعّرا

وإذا سألْتكَ أن أراكَ حقيقةً –فاسمَحْ ولا تجعلْ جوابي لن تَرى

يا قلبُ أنتَ وعدَتني في حُبّهمْ– صَبراً فحاذرْ أن تَضِيقَ وتَضجرا

إنَّ الغرامَ هوَ الحياةُ فمُتْ بِهِ –صَبّاً فحقّك أن تَموتَ وتُعذرا

قُل لِلّذِينَ تقدَّموا قَبلي ومَن – بَعدي ومَن أضحى لأشجاني يَرَى

عني خذوا وبي اقْتدوا وليَ اسمعوا– وتحدّثوا بصَبابتي بَينَ الوَرى

ولقد خَلَوْتُ مع الحَبيب وبَيْنَنَا –سِرٌّ أرَقّ منَ النسيمِ إذا سرى

وأباحَ طَرْفِي نَظْرَةً أمّلْتُها– فَغَدَوْتُ معروفاً وكُنْتُ مُنَكَّرا

فَدُهِشْتُ بينَ جمالِهِ وجَلالِهِ– وغدا لسانُ الحال عنّي مُخْبِرا

فأَدِرْ لِحَاظَكَ في محاسنِ وجْهه– تَلْقَى جميعَ الحُسْنِ فيه مُصَوَّرا

لو أنّ كُلّ الحُسْنِ يكمُلُ صُورةً– ورآهُ كان مُهَلِّلاً ومُكَبّرا

فهذه الحالة من الهيام الروحي والعشق الإلهي جعلت ابن الفارض يشعر بالتفوق على السابقين والمعاصرين من الصوفية، وأن ما حصل عليه من الله تعالى لم يحصل عليه أحد غيره، فهو يبين أنه السابق على الجميع في مجال الحب الإلهي، لدرجة أنه يطلب من الآخرين ألا يبحثوا عن أسرار الصوفية إلا من خلاله، فهو القدوة لغيره([١٢٦]).

ومنه قول الحلاج (٨٥٨ – ٩٢٢) (٢٤٤ هـ ٣٠٩ هـ):

[١٢٥] –عبد الرحمن بن الجوزي، المدهش، ص ٤٤٦.

[١٢٦] –أدبيات الخطاب الشعري في المناجاة الصوفية، ص ١١٧٠.

إرث لصبّ محبّ * نواله منك عجب

عذابه فيك عذب * وبعده عنك قرب

وأنت عندي كروحي * وأنت فيها أحبّ

وأنت للعين عين * وأنت للقلب قلب

حسبي من الحبّ أنّي * لما تحبّ أحبّ (١٢٧)

فالمتأمل في ديوان ابن الفارض(ت ٦٣٢هـ) يجد تجسيدا لعاطفة واحدة هي عاطفة الحب الإلهي والمناجاة الربانية عبر عنها بالحب والعشق والهوى والغرام والشوق والاشتياق والجوى والقرب والبعد والوصل والصد وغيرها.

كما عبر عن الحب أبو مدين التلمساني((٥٠٩ هـ/ ١١١٥ م – ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م) بقوله (١٢٨):

كلُّ واحدٍ له نصيب يأتي– وهواك لي نصيب

يا حباتي وأنتَ في ذاتي– حاضرٌ لا تغيب

أنت أسكرتَني على سكري– من قديم الشراب

ثم خاطبتني كما تدري– ففهِمتُ الخِطاب

ثمَّ صبَّرتَني رقيب ذاتي– وأنتَ كنتَ الرقيب

يا حباتي وأنت في ذاتي– حاضرٌ لا تغيب

فالمناجاة النابعة عن الحب الخالص جعلت الشيخ أبا مدين يقر بأن ذات المحبوب حاضرة في ذاته لا تغيب، هذه المحبة التي جعلته في سكر دائم وهيام مستمر، وصبابة وغرام بالمحبوب. ثم يزداد حبا وتعلقا بربه سبحانه قائلا(١٢٩):

أمرُّ على الأبواب من غير حاجة –لعلي أراكُم أو أرى من يراكُم

١٢٧–ديوان الحلاج، ص ١٢٣.

١٢٨–ديوان أبي مدين التلمساني شعيب الغوث، ص ١٩.

١٢٩–ديوان أبي مدين ، ص ٦٤.

سقاني الهوى كأساً من الحب صافياً- فيا ليتهُ لمّا سقاني سقاكُم

فيا ليتَ قاضي الحبّ يحكمُ بينَنا- وداعي الهوى لمّا دعاني دعاكمُ

أنا عبدُكُم بل عبد عبدٍ لعبدكم- ومملوكُكم من بيعكم وشراكمُ

كتبتُ لكم نفسي وما ملكت يدي- وإن قلَّت الأموالُ روحي فداكمُ

لساني بمجدكُم وقلبي بحبكُم- وما نظرت عيني مليحاً سواكمُ

وما شرّف الأكوان إلّا جمالكُم- وما يقصدُ العُشّاقُ إلّا سناكمُ

وإن قيل لي ماذا على اللَه تشتهي- أقولُ رضي الرحمنِ ثم رضاكمُ

هكذا كان الخطاب الشعري في المناجاة الصوفية نابعا من الحب الإلهي والاندماج والتماهي في الذات العلية، فالمحب في من يهوى يغرم ويتيم، ويستلذ بحديثه ومحاورته، لذا فالعلاقة بين المناجاة والحب الإلهي علاقة تلازمية متشابكة .

خامسا: حال معاتبة النفس:

اهتم الصالحون بمحاسبة النفس الإنسانية، ومعالجة آفاتها من أجل تنقيتها من الشوائب، ومن كل فعل ذميم ليحررها من النزوات المادية والشهوانية، والتي هى سببا لكل الخطايا والمهلكات.وذلك من أجل الإقبال على الله تعالى، والتحلي بالصفات الأخلاقية المحمودة التي هى سبب النجاة والفلاح في الدارين. وهذه هي الغاية القصوى عندهم.ومن هؤلاء الإمام المحاسبي، فلقد أدرك السلبيات الدفينة لتلك النفس أألمارة بالسوء ورأى أن صالحها في محاسبتها، وتأديبها بآداب القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة. ويقول المحاسبي عن أهمية محاسبة النفس: "وحاسب نفسك محاسبة من يعلم أنه قادم على الله تعالى، ويعلم أن الله يسأله عن جميع ما يكون منه في السر والجهر، ويعلم

أنه لا ينجو من الله إلا بالصدق والاستقامة، مع عفو الله وجوده، وكرمه. فأعمل ذكرك في قتل هوى نفسك، وأحذرمن الأماني والتسويف، أعاننا الله وإياك عليها، بلا عقوبة منه لنا" (١٣٠)وهذا يدل على أن المحاسبة أمر

١٣٠-المحاسبي: شرح المعرفة وبذل النصيحة، ص ٥٩.

واجب بناء على ما نص عليه الكتاب والسنة. ويقول المحاسبي في في معاتبة نفسه: " يا نفس، مالي أراك مطمئنة، والغالب عليك الفرح والسرور، وشواهد المقت بادية عليك، ودلائل الغضب بينة فيك في كثير من أحوالك؟ قد اطمأننت وسكنت، وكثيرا ما يغلب عليك الفرح والسرور في أكثر الأحوال، وأنت ترين فيك من الله دلائل الغضب وشواهد المقت، ثم لا تبكين، ولا لذلك لا تكترثين، كأنك لغضب الله تطيقين، ولعذابه تجهلين، هيهات هيهات، إنك عن دون الله لتضعفين. (١٣١).

ويقول الجنيد في رسالة لبعض إخوانه: " فأين أنت وقد أقبل بك كلك عليه، وأقبل بما يريده منك إليه، وقد بسط لك في استماع الخطاب، وبسطك إلى رد الجواب فأنت حينئذ يقال لك وأنت قائل، وأنت مسئول عن أنبائك وأنت مسائل". (١٣٢)

ويقول البسطامي في شذرات مما ورد عنه موجها خطابه إلى الإنسان :" يا شبيه العلم: اطلب في العلم العلم، فغير ما أنت فيه من العلم علم . يا شبيه الزهد: اطلب في الزهد الزهد، فغير ما أنت فيه من الزهد زهد . يا شبيه التقوى اطلب في التقوى التقوى، فغير ما أنت فيه من التقوى تقوى " ثم يقول موجها خطابه إلى الله " هذا فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمنتك "(١٣٣).

ومن مناجاة الحلاج لربه سبحانه وتعالى: اللهم، أنت الواحد الذي لا يتم به عدد ناقص، والأحد الذي لا تدركه فطنة غائض، وأنت (في السماء إله الأرض إله) أسئلك بنور وجهك الذي أضاءت به قلوب العارفين، وأظلمت منه أرواح المتمرّدين، وأسئلك بقدسك الذي تخصصت به عن غيرك، وتفرّدت به عمّن سواك، أن لا تُسرحني في ميادين الحيرة، وتنجيني من غمرات التفكّر، وتوحشني عن العالم، وتؤنسني بمناجاتك، يا أرحم الراحمين. ثم سكت ساعةً وترنّم، ورفع صوته في ذلك الترنّم وقال: يا من استهلك المحبّون فيه، واغترّ الظالمون بأياديه. لا يبلغ كنه ذاتك أوهام العباد، ولا يصل إلى غاية معرفتك أهل البلاد. فلا فرق بيني وبينك إلاّ الالهيّة والربوبية. وكانت عيناه في خلال الكلام تقطر دماً. فلمّا التفت إلي ضحك فقال: يا أبا الحسن خذ من كلامي ما يبلغ إليه علمك، وما أنكره

١٣١–معاتبة النفس، ص ٤٢.

١٣٢–رسائل الجنيد، ص ١.

١٣٣ –المجموعة الصوفية الكاملة، ص ٥٤.

علمك فاضرب بوجهي ولا تتعلّق به، فتضلّ عن الطريق. وعن أبي الحسن عليّ بن أحمد بن مردويه قال: رأيت الحلاج في سوق القطيعة ببغداد باكياً يصيح: أيها الناس أغيثوني عن الله، ثلاث مرات"(١٣٤).

ويقول: " حبيبي سترتني حيث شئت، فوعزتك لو عذبوني بأنواع البلاء ما رأيته إلا من أحسن النعم؛ لأن شعاع أنوار الضمائر قد اخترقت مكاشفات أحوال الظاهر، إلهي أخشاك لأني مذنب، وأرجوك لأني مؤمن، وأعتمد على فضلك لأني معتذر، وأثق بكرمك لأني أستغفر، وأنبسط إلى مناجاتك لأني حسن الظن بك"(١٣٥).

ومن أمثلة ذلك ما سجله النفري في مواقفه ومخاطباته:" وقال لي أنت معنى الكون كله" (١٣٦).وقال لي: أَصْمِتْ لي الصامت منك، ينطق الناطق ضرورة "(١٣٧).

ومنه قول الشافعي ، وقيل منسوب إلى السهيلي(١٣٨):

يا من خزائن رزقه في قول كن * امنن فإن الخير عندك أجمع

ما لي سوى فقري اليك وسيلة * و بالافتقار اليك فقري أدفع

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة * فلئن طردت فأي باب أقرع

و من الذي أدعو و أهتف باسمه * ان كان فضلك عن فقير يمنع

ويجمل أبو مدين التلمساني هدف المؤمن في دنياه وهو خوفه من الله ورجاؤه لرحمته فيقول:

قَضَاؤُكَ مَقْضِيٌّ وَحُكْمُكَ نَافِذٌ ... وَعِلْمُكَ فِي السَّبْعِ الطِّبَاقِ وَفِي الثَّرَى

وَأَمْرُكَ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ كَائِنٌ ... بِأَسْرَعَ مِنْ لَحْظِ الْعُيُونِ وَأَيْسَرَا

إِذَا قُلْتَ كُنْ كَانَ الَّذِي أَنْتَ قَائِلٌ ... وَلَمْ يَكُ مِنْكَ الْقَوْلُ فِيهِ مُكَرَّرَا

سَبَقْتَ وَلَمْ تُسْبَقْ وَكُنْتَ وَلَمْ يَكُنْ ... سِوَاكَ وَتَبْقَى حِينَ يَهْلِكُ ذَا الْوَرَى

١٣٤–الأعمال الصوفية الكاملة ، ص ٢٤٧.

١٣٥–الأعمال الكاملة، ص ٢٤٩.

١٣٦–المواقف والمخاطبات، ص٥.

١٣٧– المواقف والمخاطبات، ص٦.

١٣٨–الأدب في التراث الصوفي، ص ١٧٩.

The International Journal of Islamic Studies and Culture (IJISC)
Volume 3, Bil. 1, May (2024)
ISSN: 2948-3778 e-ISSN: 2948-3913 https://ijisc.unishams.edu.my

وَدَبَّرْتَ أَمْرَ الْخَلْقِ مِنْ قَبْلِ خَلْقِهِ ... فَكَانَ الَّذِي دَبَّرْتَ عَدْلاً مُيَسَّرَا

عَلَوْتَ عَلَى السَّبْعِ السَّمَاوَاتِ قَاهِرًا ... وَأَنْتَ تَرَى مَا قَدْ خَلَقْتَ وَلاَ تُرَى

تُقِرُّ لَكَ الأَرْبَابُ أَنَّكَ رَبُّهَا ... وَلَوْ أَنْكَرَتْ ذَاقَتْ عَذَاباً مُنَكَّرَا

لَبِسْتَ رِدَاءَ الْكِبْرِيَاءِ وَلَمْ يَكُنْ ... لِغَيْرِكَ يَا ذَا الْمَجْدِ أَنْ يَتَكَبَّرَا (١٣٩)

ومن مناجاة الصوفية ما نسب إلى الإمام البرعي في مناجاته لربه وضراعته إليه، قوله:

سيدي أنتَ مقصدي ومرادي –أنت حسبيَ وأنتَ نعمَ الوكيلُ

أحيِ قلبي بموتِ نفسي وصلني– وأنلني إنَّ الكـــريمَ ينيلُ

وأجرني منْ كلِّ خطبٍ جليلٍ –قبلَ قولِ الوشاةِ صبرٌ جميلُ

وافتقدني برحمةٍ واقلني– من عثـــارى فإنني مستقيلُ (١٤٠)

ونلاحظ أن الشيخ البرعي يستمد مناجاته من القرآن الكريم

وإذا كان من الممكن أن نقف على شذرات المناجاة التي تركها المتصوفة الأوائل كالحسن البصري

(ت ١١٠هـ)فقد أورد هذه المناجاة التنوخي في كتابه "الفرج بعد الشدة "في قصته مع الحجاج ابن يوسف، ولفظ المناجاة: "يا غياثي عند دعوتي، ويا عُدَّتي في مُلِمَّتي، ويا ربي عند كربتي، ويا صاحبي في شدتي، ويا وليي في نعمتي، ويا إلهي، وإله إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى، ويا رب النبيين كلهم أجمعين،وارزقني مودة عبدك الحجاج، وخيره، ومعروفه، واصرف عني أذاه، وشره، ومكروهه، ومعرته)(١٤١)، ذلك أن الحجاج بن يوسف لما ولي العراق وطغى رد عليه الحسن البصري,فعلم الحجاج ان الحسن يتهجم عليه في مجلس عام، فقال لجلسائه :تباً لكم وسُحقا يقوم عبد من عبيد أهل البصرة ويقول فينا ما شاء أن يقول ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه, والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء, ثم أمر بالسيف والنطع، فأحضر ودعا بالجلاد فمثل واقفاً بين يديه ،ثم وجه إلى الحسن بعض جنده وأمرهم أن يأتوا به, وما هو إلا قليل حتى جاء الحسن

١٣٩–ديوان أبي مدين، جمع وترتيب د عبدالقادر سعود، د سليمان القرشي، ص ٥٩٤.

١٤٠–الأدب في التراث الصوفي، محمد عبدالمنعم خفاجي، ص ١١٦.

١٤١– الفرج بعد الشدة للتنوخي، المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (المتوفى: ٣٨٤هـ) تحقيق: عبود الشالجى، الناشر: دار صادر، بيروت، عام النشر: ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م، ١ | ١٤٤.

فشخصت نحوه الابصار, ووجفت عليه القلوب, فلما رأى الحسن السيف والنطع والجلاد حرك شفتيه وتمتم بكلمات ،ثم أقبل على الحجاج فلما رآه الحجاج على حاله هذه هابه وقال له: هاهنا يا أبا سعيد, تعال اجلس هنا, فما زال يوسع له ويقول هاهنا, والناس لا يصدقون ما يرون حتى اجلسه الحجاج على فراشه ووضعه جنبه, ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج وجعل يسأله عن بعض أمور الدين, والحسن البصري يجيبه عن كل مسألة فقال له الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد, ثم دعا بغالية (نوع من أنواع الطيب) وطيَّبَ له لحيته وودعه، ولما خرج الحسن من عنده تبعه حاجب الحجاج وقال له: يا أبا سعيد, لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك, وإني رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع قد حركت شفتيك, فماذا قلت؟ فقال الحسن: لقد قلت: ''يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي, اجعل نقمته برداً وسلاماً عليَّ, كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم''(١٤٢).

وبشر الحافي: كان رضي الله عنه لا يتكلم إلا في الخير، وإذا تكلم كان جُلّ كلامه حكمًا ومواعظ تذكر بالآخرة وتحث على الازدياد من الطاعات والخيرات، كما كان لسانه لا يفتر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ومن مناجاته:" اللهم إن كنت شهرتني في الدنيا لتفضحني في الآخرة فاسلبه عني" (١٤٣) فهذا من علامات الإخلاص أن يخاف من الشهرة وانتشار الصيت على نفسه ودينه، وخصوصا إذا كان من أصحاب المواهب، وأن يوقن بأن القبول عند الله بالسرائر لا بالمظاهر، وأن إنسانا لو طبقت شهرته الآفاق، وهو مدخول النية، لم يغن عنه الناس من الله شيئا.

وإبراهيم بن أدهم (١٦١هـ): كان من مناجاته: اللهم اعصمني من فتن الدنيا، ووفقني لما تحب وترضى، وأصلح لي شأني كله، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا تضلني وإن كنت ظالماً ،سبحانك سبحانك يا علي يا عظيم يا بارئ يا رحيم يا عزيز يا جبار سبحان من سبحت له السماوات بأكنافها وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحت له ، الحيتان بلغاتها ، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها وسبحان من سبحت له السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن سبحان من سبح له كل شيء من مخلوقاته تباركت وتعاليت سبحانك سبحانك يا حي يا قيوم يا عليم يا حليم ، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيي

١٤٢–المصدر السابق، نفس الصفحة.

١٤٣– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، ١ | ٢٧٥.

وتميت وأنت حي لا تموت ، بيدك الخير ، وأنت على كل شيء قدير"(١٤٤) . فلغة المحبين حاضرة ولها صداها المؤثر في النص، فالرقة في التعبير، مع جمال اللفظ ساهم في إضفاء أجواء مشحونة بطاقات الحب.فقد زالت كل الحواجز التي تقف حائلا في خطاب العبد لمعبوده .

ومعروف الكرخي (سنة ٢٠٠هجرية) من مناجاته لربه: أنشد مرة في السَّحَر: ما تضر الذنوب لو أعتقتني رحمة لي فقد علاني المشيب، وعن محمد بن منصور الطوسي ، قال : قعدت مرة إلى معروف ، فلعله قال : واغوثاه يا الله ، عشرة آلاف مرة ، وتلا : إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم . قال عنه الذهبي : علم الزهاد ، بركة العصر" (١٤٥)

الحارث المحاسبي رحمه الله (ت ٢٤٣هـ) تمثلت مناجاته في عتابه لنفسه، وحثها على العمل للآخرة، من كتبه :" آداب النفوس ، ذكر فيه : مُعَاملَة الله، ودَلَائِل معرفَة الله، وكيفية سياسة النفس، وفضل عمل القلب على عمل اللسان، وقهر النفس على طلب الآخرة، وآداب المراقبة. وكتابه : "التوهم في وصف أحوال الآخرة " الذي يخاطب فيه نفسه، متوهما رحلته بعد الموت خطوة خطوة وكيف تكون، وتسري عناوين كتبه الأخرى إلى هذه النزعة الواضحة إلى مخاطبة الذات ومعاتبتها. ومن أشهر هذه الكتب :معاتبة النفس(١٤٦)،وكتاب بدء من أناب إلى الله .

والإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد(ت ٢٩٧هـ) إمام هذه الطائفة، ومقدم هذه الجماعة، كما يصرح بذلك السبكي في طبقاته، ورسائله إلى بعض إخوانه خير دليل على استحضار معية الله عز وجل (١٤٧).

أبو يزيد البسطامِي (١٨٨ – ٢٦١ هـ) من أوائل المتصوّفين المسلمين، من مناجاته لربه : " هَذَا فَرَحِي بِكَ وَأَنَا أَخَافُكَ، فَكَيْفَ فَرَحِي بِكَ إِذَا أَمِنْتُكَ؟ لَيْسَ العَجَبُ مِنْ حُبِّي لَكَ، وَأَنَا عَبْدٌ فَقِيْرٌ، إِنَّمَا العَجَبُ مِنْ حُبِّكَ لِي، وَأَنْتَ مَلِكٌ قَدِيْرٌ.(١٤٨)، والخوف من الله ووعده ووعيده، من أعظم ما ينتفع به المسلم في طريقه إلى ربه، فهو

---

١٤٤ –إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، مرتضى الزبيدي – محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، ج٥، ص ٧٣. الناشر: المطبعة الميمنية، سنة النشر: ١٣١١هـ.

١٤٥– سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٣٤٢.

١٤٦– تحقيق محمد عبد القادر عطا، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٦.

١٤٧ – طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، ج١، ص ٢٨٠.

١٤٨– كتاب تاريخ الإسلام ط التوفيقية – تراجم أهل هذه الطبقة على حروف المعجم – ص٧٤ – المكتبة الشاملة

أصل كل خير في الدنيا والآخرة، فالقلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه.

ومن مناجاة ابن الفارض :

أشاهد معنى حسنكم فيلذ لي - خضوعي لديكم في الهوى وتذللي

وأشتاق للمعنى الذي أنتم به – ولولاكم ما شافني نكد منزل

فلله كم من ليلة قد قطعتها – بلذة عيش والرقيب بمعزل

ونقلي مدامي والحبيب منادمي – وأقداح أفراح المحبة تنجلي

ونلت مرادي فوق ما كنت راجيا- فوا طربا لو تم هذا ودام لي

والمعنى: أشاهد أثر حسنكم، والخطاب للأحبة من حيث الظهور الإلهى بالمظاهر المتعددة، والحسن هو الجمال الحقيقى وهو حضرة الأسماء الحسنى . يحركنى الشوق وهو نزاع النفس وحركة الهوى .ليالٍ كثيرة قضيتها في حضرة قيومية، يناجينى فى سرى على شراب محبته واناجيه وأنا طامع فى كرمه وراجيه.([١٤٩])ومما نلحظه على خطاب المناجاة عند الصوفية أنه يرتكز على المحبة الروحية، والتعلق بالخالق سبحانه وتعالى، لتكون أكثر عمقاً في القرب والاتصال بالمحبوب وهو الله جل جلاله، لأن المحبين تغلب الرياضة الروحية في خلواتهم على العبادة فيتخذون من الخلوة وسيلة للفناء في المحبوب أو مشاهدة آثاره، ومن هنا كانت الخلوة التي يسبح فيها الصوفية على أجنحة من الرياضة إلى عوالم الغيب التي لا يشهدها غيرهم من الناس، وهم يتخذون من الذكر وسيلة هامة يسعون بها نحو هدفهم البعيد"([١٥٠])

نتائج البحث:

١-أن المناجاة عادة ما يختلط معناها بالدعاء، فهي أخص الدعاء وأرقه وأعذبه، حديث محب مشتاق، وهي تعبر عن الألم الروحي واللوعة والشوق .

[١٤٩]- شرح ديوان ابن الفارض من شرحَى : الشيخ بدر الدين الحسن بن محمد البورينى (ت ١٠٢٤ هـ) والشيخ عبد الغنى بن اسماعيل النابلسي (ت ١١٤٣ هـ)ص٣٥.

[١٥٠]-عبدالحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي: نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مكتبة الأنجلو القاهرة، دت، ص٢٨٠.وانظر: أدبيات الخطاب الشعري في المناجاة الصوفية، ص ١١٦٧.

٢– فن المناجاة من الفنون الأدبية التي عرفتها كل العصور، عرفها العصر الجاهلي في صورة شكر تدور في فلك الاعتراف بفضل الله وكثير نعمه.

٣– تعددت أنواع المناجاة، فهناك مناجاة التائبين والشاكين والخائفين والشاكرين والراغبين والراجين، وتدخل ضمن مناجاة المتعبدين.وهناك مناجاة المحبين.

٤–أن المناجاة عملياً وممارسة طبقها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام فقد ناجى آدم وإبراهيم ويونس وموسى وعيسى وحتى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.ثم مارسها الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، ومن بعدهم الصالحون والمتصوفة.

٥– أن الصوفية اعتمدوا المناجاة كمقام وحال صوفي، أما المقامات المرتبطة بالمناجاة تتمثل في الشكر، والرضا، والتوكل، الصبر، الفقر، الزهد، الورع، التوبة. وأما الأحوال المرتبطة بالمناجاة فهي: حال المراقبة، والقرب والشوق والحب الإلهي.

٦–أن هناك علاقة وثيقة بين الحب وخطاب المناجاة الصوفية، فالحب منزع روحي له أنوار وتجليات عند الصوفية، عبر عنه ابن عربي ورابعة العدوية في مناجاتهم حين قالوا عبدنا الله لا خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته بل حباً له وشوقاً إليه.فهو أعلى مراتب الحب، حيث يطالع المحب جمال وجلال ربه طلباً للزلفى والقرب.

أما التوصية التي أوصي بها في ختام بحثي هذا فهي أن يتذوق كل مسلم لذة المناجاة والتضرع بين يدي الله،في الأوقات الفاضلة التي تستجاب فيها الدعوات، فليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة إلا حلاوة المناجاة ، لعل أطيب أوقات المناجاة أن تخلو بربك والناس نيام، والخَلِيُّون هُجَّع، وقد سكن الكون كله، وأرخى الليلُ سدولهَ، وغابت نجومه، فتستحضر قلبك، وتتذكر ربك، وتتمثل ضعفك وعظمة مولاك، فتأنس بحضرته، ويطمئن قلبك بذكره، وتفرح بفضله ورحمته، وتبكي من خشيته، وتشعر بمراقبته، وتلح في الدعاء، وتجتهد في الاستغفار، وتفضي بحوائجك لمن لا يعجزه شيء، ولا يشغله عن شيء شيء، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون، وتسأله لدنياك وآخرتك، وجهادك ودعوتك، وأمانيك ووطنك وعشيرتك، ونفسك وإخوانك. فمن ذاق الحلاوة أَنِفَ من مرارة المعاصي؛ فتصبح همته متطلعة إلى معالي الأمور وتكره سفسافها.

أهم المراجع:

القرآن الكريم

–الأدب في التراث الصوفي، د محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة غريب، القاهرة، بدون معرفة تاريخ الطبعة .

-الاقتباس من القرآن الكريم في المناجاة الصوفية، هالة معين صبري، د إسماعيل حمادي، جامعة واسط، كلية التربية.

-إيضاح شواهد الإيضاح، أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي (المتوفى: ق ٦هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بن حمود الدعجاني، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

- المقصور والممدود: ابن ولاد أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمي المصري (المتوفى: ٣٣٢هـ)، تحقيق: بولس برونله، الناشر: مطبعة ليدن، ١٩٠٠ م.

- النوادر في اللغة، المؤلف: أبو زيد الأنصاري، تحقيق ودراسة: الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد، الناشر: دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

- شرح العقيدة الواسطية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ)، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: السادسة، ١٤٢١ هـ.

- لسان العرب المحيط، ابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف، نديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت

- مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان داوودي، ، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط،١ ١٤٢٦هـ: ٧٩٢مادة(نجو).

- التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي – القاهرة .

- أدب القصة في القرآن الكريم دراسة تحليلية كاشفة عن عالم الإعجاز ، د. عبد الجواد محمد المحص ،الدار المصرية، الإسكندرية، سلسلة الدراسات القرآنية)١(، ٢٠٠٠م)

- رفيق العجم: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي،بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٩٩م.

-أمين يوسف عودة، تجليات الشعر الصوفي، قراءة في الأحوال و المقامات. المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع, ٢٠٠١م.

-منصور الرفاعي عبيد، دعاء العارفين، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط،١ ٢٠٠١.

– أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، اللمع ، ط دار الكتب الحديثة مصر، تحقيق د عبدالحليم محمود، طه عبدالباقي سرور، ١٩٩٠.

– عبد الكريم القشيري ، أربع رسائل في التصوف، تقديم، قاسم السمرائي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ،١٩٦٩م.

– الصوفية والسوريالية، أدونيس، لندن، دار الساقي ط،٣ دون تاريخ.

-مُخْتَصَر صَحِيحُ الإِمَامِ البُخَارِي: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتَبَة المَعارف للنَّشْر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢.

– السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب.

– سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر.

– سنن أبي داود ،أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م